بلاغةُ النَّظمِ القرآني
في اصطفاء التعبير
باسم اللّه العليم في سورة البقرة

إعداد

د/ علي عبد الكريم مبروك إبراهيم

مدرس البلاغة والنقد في كلية الدراسات الإسلامية والعربية

للبنين بجامعة الأزهر بالقاهرة.

بلاغة النظم القرآني في اصطفاء التعبير باسم الله العليم في سورة البقرة

علي عبد الكريم مبروك إبراهيم

قسم: اللغة العربية وآدابها، تخصص: البلاغة والنقد، كلية: الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بالقاهرة، جامعة الأزهر، القاهرة ، مصر

البريد الإلكتروني:Aliibrahim1591.el@azhar.edu.eg

ملخص:

هدفت الدراسة إلى إبراز ما للسياق من أثر في اصطفاء المفردات وما للمفردة القرآنية من أثر في بلاغة النظم، ومن ثم تأثيره في نفوس متلقيه، وعمله في قلوب سامعيه، إذ المفردة هي الوحدة الأولى من الوحدات المكونة للنظم والمؤلفة للنص، ومن ثم يجب العناية بها ووضعها في الموضع اللائق بها حتى لا يخرج النظم مبتورًا مشوهًا.

•واستخدمت الدراسة المنهج التحليلي وذلك بتحليل المفردات المكونة للنص؛ للوقوف على دقائق النظم وأسرار التعبير، وما للسياق من أثر في إيثار مفردة على صاحبتها واصطفاء اسم من أسماء الله – تعالى– على غيره من الأسماء.

•ومن أهم النتائج التي توصل إليها البحث أن القرآن يعنى عناية فائقة باختيار المفردة بحيث تكون غاية الدقة، ملائمة للسياق، مؤدية للمراد، وإذا نحن تأملنا السياقات التي ورد فيها اسم الله العليم لوجدنا أن اختيار النظم القرآني لهذا الاسم من أسمائه تعالى لم يكن عبثًا ولم يأت اعتباطًا، وإنما جاء ليكون آخر الكلام مناسبًا لأوله، وأوله دالًا على آخره، ومن ثم تكون الكلمة في موقعها ومؤدية لدورها، ولو أنك حاولت في هذا الموضع التعبير

بغير هذا الاسم لأتى النظم مختلًا ولكانت العبارة نابية غير مستقرة في موضعها، وهذا أمر يدركه صاحب الذوق ومن له حظ من البلاغة.

الكلمات المفتاحية: النظم، بلاغة القرآن، التعبير باسم الله العليم.

The eloquence of the Qur'an in selecting the expression in the name of God the All-Knowing in Surat Al-Baqarah

Ali Abdul Karim mabruk Ibrahim

Department of: Arabic language and its literature College of: Islamic and Arabic Studies for Boys in Cairo University alazhar (city) cairo (country)egpt

Email: Aliibrahim1591.el@azhar.edu.eg

Abstract:

Aim : The study aimed to highlight the effect of the context in selecting the vocabulary and the effect of the Qur'anic term on the rhetoric of the systems, and then its effect on the hearts of its recipients, and its work in the hearts of its listeners, as the singular is the first unit of the units forming the systems and composing the text, and then it must be taken care of and put They are in the proper position so that the systems do not come out with a mutilated amputation.

Method : The study used the analytical method by analyzing the vocabulary constituting the text to find out the subtleties of the systems and the secrets of expression and the effect of the context in favoring a single one on its owner and selecting a name from the names of God Almighty over other names.

Results: • One of the most important findings of the research is that the Qur'an means great care in choosing the term so that it is very accurate, appropriate to the context, and leads to the purpose. If we look at the contexts in which the name of God the Knower is mentioned, we will find that the choice of the Qur'anic

systems for this name from His names was not in vain nor was it It comes arbitrarily, but it came so that the last words are appropriate to the first, and the first to indicate the end, and then the word will be in its place and fulfill its role, and if you tried in this place to express it without this name, the systems would have come about defective, and the phrase would be swearing and unstable in its position, and this is something that the owner of Taste and who has a chance of eloquence.

Keyword: Rhetoric of the Qur’an - expression in the name of God the All-Knowing.

مقدمة

الحمد لله الذي هدانا لدينه، وأرسل إلينا أفضل رسله، وأنزل علينا خير كتبه، نحمده على ما أنعم به من نعم، ونسأله الزيادة منها، والتوفيق لشكرها، ونصلي ونسلم على خاتم أنبيائه ورسله محمد الأمين، وآل بيته الأخيار، وصحبه الأطهار، وبعد:

فهذ بحث حاولت من خلاله دراسة المفردة القرآنية– من حيث دقتها وملاءمتها للسياق ووفاؤها بالمراد؛ لما لذلك من أثر في بلاغة النظم، ومن ثم تأثيره في نفوس متلقيه، وعمله في قلوب سامعيه، إذ المفردة هي الوحدة الأولى من الوحدات المكونة للنظم والمؤلفة للنص، ومن ثم يجب العناية بها ووضعها في الموضع اللائق بها حتى لا يخرج النظم مبتورًا مشوهًا.

وفي هذا يقول ابن الأثير(ت٦٣٧) –رحمه الله–: " اعلم أنه يحتاج صاحب هذه الصناعة في تأليفه إلى ثلاثة أشياء: الأول منها: اختيار الألفاظ المفردة وحكم ذلك حكم اللآلئ المبدَّدَة، فإنها تتخير وتنتقي قبل النظم. الثاني: نظم كل كلمة مع أختها المشاكلة لها لئلَّا يجيء الكلام قلقًا نافرًا عن مواضعه، وحكم ذلك حكم العقد المنظوم في اقتران كل لؤلؤة منه بأختها المشاكلة لها. الثالث: الغرض المقصود من ذلك الكلام على اختلاف أنواعه وحكم ذلك الموضع الذي يوضع فيه العقد المنظوم، فتارةً يُجعلُ إكليلًا على الرأس، وتارةً يُجعلُ قلادةً في العنق، وتارةً يجعل شنفًا في الأذن، ولكل موضع من هذه المواضع هيئة من الحسن تخصه" [١].

---

(١) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر لابن الأثير، ت: أحمد الحوفي، بدوي طبانة، دار نهضة مصر، الفجالة، القاهرة، ١٦٣/١.

ويفاد مما ذكره ابن الأثير أنَّ اللفظة المفردة إذا كانت تكتسب شرفها وفضلها من خلال النظم الذي توضع فيه، بحيث ينبغي أن تكون هناك مناسبة ومشاكلة بين كل لفظة وأختها، فإنَّ فضلَ النَّظم وشرفَه متوقفٌ كذلك على الألفاظ التي ينسج ويتركب منها، بحيث ينبغي أن تكون كلُ لفظةٍ قد اختيرت اختيارًا ملائمًا للمقام، ومناسبًا للسياق الذي وردت فيه، ثم يأتي بعد ذلك الغرض الذي يستعمل فيه هذا الكلام، بحيث ينبغي أن يكون الكلام ملائمًا للغرض الذي سيق من أجله، فتلك أركان ثلاثة ينبغي لمنشئ الكلام أن يدركها، وأن يكون على علم بها، ومن ثم يجب أن لا يحيد عنها، وإلا جاء كلامه غثًّا لا فائدة منه ولا طائل من ورائه.

والقرآن في هذا المضمار وصل إلى الغاية التي لا مزيد عليها ولا غاية بعدها، فقد عني بهذا الجانب عنايةً فائقةً، واهتم به اهتمامًا بالغًا، حتى إنَّك لتراه يستعمل المفردة في محيط من الألفاظ المشاكلة لها، ويستعمل مرادفها في سياق آخر يناسبه، ولا يستعمل أحد المترادفين في سياق الآخر، فإذا كان هذا شأنه في المترادفات مع ما بينها من تشابه وتقارب، فكيف بالألفاظ المتباينة؟!

وقد لفت الجاحظ (ت٢٥٥هـ) إلى هذه الدقة في استعمالات الألفاظ المترادفة في القرآن فقال: " وقد يستخف الناس ألفاظًا ويستعملونها وغيرها أحق بذلك منها، ألا ترى أن الله تبارك وتعالى لم يذكر في القرآن الجوع إلا في موضع العقاب أو في موضع الفقر المدقع والعجز الظاهر، والناس لا يذكرون السغب ويذكرون الجوع في حال القدرة والسلامة، وكذلك ذكرُ المطرِ، لأنَّك لا تجد القرآن يلفظ به إلا في موضع الانتقام، والعامة وأكثر الخاصة لا يفصلون بين ذكر المطر وبين ذكر الغيث، ولفظ القرآن الذي

عليه نزل أنه إذا ذكر الأبصار لم يقل الأسماع، وإذا ذكر سبع سموات لم يقل الأرضين، ألا تراه لا يجمع الأرض أرضين، ولا السمع أسماعا، والجاري على أفواه العامة غير ذلك، لا يتفقدون من الألفاظ ما هو أحق بالذكر وأولى بالاستعمال، وقد زعم بعض القراء أنه لم يجد ذكر لفظ النكاح في القرآن إلا في موضع التزويج" [1].

وهذا النص للجاحظ قد وقف من خلاله في عجالة على ما تميز به أسلوب القرآن من دقة متناهية في استعمال الألفاظ لاسيما المترادفات، إذ لما بينها من صلة ووشيجة قد يتوهم البعض إمكان وضع أحدها في موضع صاحبتها، لكن هذا إن كان ممكنًا في عرف الناس، وجرت به ألسنتهم فعاقبوا بين المترادفات، واستعملوا بعضها في موضع بعض، إلا أن ذلك غير ممكن في أسلوب القرآن، لأنه اختار من الألفاظ ما يعبر عن المعنى أدق تعبير، ويتناسب مع السياق أشد المناسبة، فنراه في سياق الحديث عن العقاب والإذلال يستعمل الجوع دون السغب، وفي مقام الحديث عن العذاب والانتقام يستعمل المطر دون الغيث، وتراه يجمع الأبصار ويفرد الأسماع، ويجمع السماوات ويفرد الأرض، وهكذا.

كما نبه الجاحظ من خلال هذا النص أيضًا على ما للسياق من دور بالغ في تحديد مفاهيم الألفاظ ومدلولاتها، إذ لا يمكن الوقوف على المعنى الحقيقي للمفردة وما ينتج عنها من دلالات وإيحاءات إلا بالوقوف على السياق الذي وردت به.

([1]) البيان والتبيين، دار ومكتبة الهلال، بيروت ١٤٢٣هـ، ٤١/١.

ويفاد من ذلك أن نظرية السياق إذا طبقت بحكمة – فهي تمثل حجر الأساس في علم المعنى، وقد قادت بالفعل إلى الحصول على مجموعة من النتائج الباهرة في هذا الشأن، فقد قدمت لنا وسائل فنية حديثة لتحديد معاني الكلمات، فكل كلماتنا تقريبا تحتاج على الأقل إلى بعض الإيضاح المستمد من السياق الحقيقي، سواء أكان هذا السياق لفظيًا أم غير لفظي، فالحقائق الإضافية المستمدة من السياق تحدد الصور الأسلوبية للكلمة، كما تعد ضرورية في تفسير المشترك اللفظي(١).

ونبه الباقلاني(ت ٤٠٣هـ) كذلك على ما تمتاز به ألفاظ القرآن من دقة، وجعل ذلك من أوجه الإعجاز فيه، فهو يرى أن أحد أوجه إعجازه أنه " سهل سبيله، فهو خارج عن الوحشي المستكره، والغريب المستنكر، وعن الصنعة المتكلفة، وجعله قريبًا إلى الأفهام، يبادر معناه لفظه إلى القلب" (٢).

ونبه كذلك على منزلة العلم بهذه الألفاظ ودقائقها فقال: " واعلم أنَّ هذا علم شريف المحل، عظيم المكان، قليل الطلاب، ضعيف الأصحاب، ليست له عشيرة تحميه، ولا أهل عصمة تفطن لما فيه، وهو أدق من السحر، وأهول من البحر، وأعجب من الشعر، وكيف لا يكون كذلك، وأنت تحسب أن وضع الصبح في موضع الفجر، يحسن في كل كلام إلا أن يكون شعرًا أو سجعًا، وليس كذلك فإن إحدى اللفظتين قد تنفر في موضع، وتزل عن مكان لا تزل عنه اللفظة الأخرى، بل تتمكن فيه وتضرب بجرانها، وتراها

(١) ينظر: دور الكلمة في اللغة لستيفن أولمان، ترجمة: كمال بشر، مكتبة الشباب، ط ١٩٨٦م. ص٦٦،٦٧.

(٢) إعجاز القرآن للباقلاني، ت/ السيد أحمد صقر، دار المعارف، مصر، ص٦٩.

في مظانِّها، وتجدها فيه غير منازعة إلى أوطانها، وتجد الأخرى لو وضعت موضعها في محل نفار، ومرمى شراد، ونابية عن استقرار"[١].

ويقول الخطابي كذلك متحدثًا عن الوجوه التي بسببها عجز العرب – وهم أرباب الفصاحة والبيان– عن أن يأتوا بمثل هذا القرآن العظيم ولو بمقدار أقصر سورة منه: " ثم اعلم أنَّ عمود هذه البلاغة... وضع كل نوع من الألفاظ موضعه الأخص الأشكل به، الذي إذا أبدل مكانه غيره جاء منه: إما تبدل المعنى الذي يكون منه فساد الكلام، وإما ذهاب الرونق الذي يكون معه سقوط البلاغة..." [٢].

ومن هنا ندرك مدى ما للمفردة من أثر في تشكيل النظم والتركيب، وأن التهاون في اختيار المفردة، أو وضعها في غير موضعها يفضي لا محالة إلى فساد الكلام وسقوطه. والقرآن يعنى بهذا الجانب عناية فائقة، حتى إنك لتعجز عن أن تجد مفردة من مفرداته يمكن الاستعاضة عنها بغيرها، أو وضع غيرها في موضعها.

فالجملة القرآنية بناء أحكمت لبناته، ونسقت أدق تنسيق، لا تحس فيها بكلمة تضيق بمكانها، أو تنبو عن موضعها، أو لا تعيش مع أخواتها، حتى صار من العسير بل من المستحيل، أن تغير في الجملة كلمة بكلمة، أو أن تستغنى فيها عن لفظ، أو أن تزيد فيها شيئا، وصار قصارى أمرك إذا أردت معارضة جملة في القرآن، أن ترجع بعد طول المطاف إليها، كأنما لم يخلق

(١) المرجع السابق ص ٢٧٩، ٢٨٠.

(٢) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن للرماني والخطابي وعبد القاهر الجرجاني، ت/ محمد خلف الله، د. محمد زغلول سلام، دار المعارف بمصر، ط:٣، ص٢٩.

الله لأداء تلك المعاني غير هذه الألفاظ، وكأنما ضاقت اللغة فلم تجد فيها ما تؤدى به تلك المعاني غير ما اختاره القرآن لهذا الأداء [1].

وقد تجلَّت هذه العناية في الآيات الكريمة التي ذيلت بأسماء الله –تعالى– الحسنى وهي كثيرة جدًا، ورغم تلك الكثرة فإنَّك لا تجد آية واحدة يمكنك فيه رفع الاسم المعبر به ووضع غيره في موضعه، مما يدلك على أنَّ تلك الأسماء لم تذكر لمجرد التذييل بمعزل عن السِّياق الذي وردت به واستعملت فيه، ولو أنَّك تتبعت كل الآيات التي ذيلت باسم من أسمائه لوجدت الرابطة قوية والعلاقة وثيقة بين هذا الاسم المعبر به والسِّياق الذي ورد فيه، وقد تناولت في هذا البحث المتواضع الآيات التي ذيلت باسم الله العليم في سورة البقرة، محاولًا الكشف عن أسباب اصطفاء هذا الاسم من أسمائه تعالى على ما عداها في كل موضغ من تلك المواضع، وموضحًا أثر السِّياق في هذا الاصطفاء، وقسمته إلى: مقدمةٍ، وتمهيدٍ، وأربعةِ مباحث، وخاتمةٍ وفهارس.

أما المقدمة فتحدثت فيها عن أهمية الموضوع وخطته.

وأما التمهيد فضمنته النقاط الأتية:

أ- أسماء الله الحسنى بين التوقيف والاصطلاح.

ب–معنى اسم الله العليم.

ج – اسم الله العليم في القرآن الكريم.

د– اسم الله العليم في سورة البقرة.

---

(1) ينظر: من بلاغة القرآن، د. أحمد البدوي، نهضه مصر، القاهرة، ٢٠٠٥م. ص٨٥.

وأما المبحث الأول فجاء تحت عنوان: التعبير باسم الله العليم في مقام الحديث عن قدرة الله تعالى على الخلق والبعث.

وأما المبحث الثاني فجاء تحت عنوان: التعبير باسم الله العليم في مقام الحديث عن العقائد.

أما المبحث الثالث فجاء تحت عنوان: التعبير باسم الله العليم في مقام الحديث عن العبادات والشعائر.

والمبحث الرابع جاء تحت عنوان: التعبير باسم الله العليم في مقام الحديث عن الأحكام الشرعية.

والمبحث الخامس جاء تحت عنوان: التعبير باسم الله العليم في مقام الحث على الإنفاق.

ثم ذيلت البحث بخاتمة بينت فيها أهم النتائج، وفهرس للمراجع، وآخر للمحتويات.

والله أسأل أن يجنبنا الزلل وأن يكتب لنا أجر هذا العمل، وصل اللهم وسلم وزد وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه.

تمهيد

أ- أسماء الله تعالى بين التوقيف والاصطلاح

ذهب جمهور العلماء إلى أن أسماء الله تعالى توقيفية، بمعنى أنَّ مصدرها الشرع، ولا يجوز القياس فيها، ومن ثم يجب التوقف في أسماء الله على ما أثبته الله تعالى لنفسه من أسماءٍ دون زيادة أو نقصان، فلا يجوز قياس اسم على اسم، فلا يقاس مثلًا على اسمه تعالى الرحيم اسم الرقيق، وإن كانت الرحمة في نعوت الآدميين نوعًا من رقة القلب وضعفه عن احتمال القسوة، ولا يقاس على الجواد السخي، وإن كانا متقاربين في ظاهر الكلام؛ وذلك أن السخي لم يرد به التوقيف كما ورد بالجواد، ومن أسمائه القوى، ولا يقاس عليه الجَلد، وإن كان يتقاربان في نعوت الآدميين؛ لأن باب التجلد يدخله التكلف والاجتهاد. ولا يقاس على القادر المطيق، ولا المستطيع؛ لأن الطاقة والاستطاعة إنما تطلقان على معنى قوة البنية، وتركيب الخلقة. ومن أسمائه العليم، ومن صفته العلم فلا يجوز قياساً عليه أن يسمى عارفاً؛ لما تقتضيه المعرفة من تقديم الأسباب التي بها يتوصل إلى علم الشيء، وكذا لا يقاس على العالم العاقل، فلا يوصف بالعاقل[1].

يقول شمس الدين السفاريني:" المعتمد عند أهل الحق توقيفية –يعني أسماء الله– بنص الشرع وورود السمع بها. ومما يجب أن يعلم أن علماء السنة اتفقوا على جواز إطلاق الأسماء الحسنى والصفات العلى على الباري –جلَّ وعلا– إذا ورد بها الإذن من الشارع، وعلى امتناعه على ما ورد المنع

(1) ينظر: شأن الدعاء للخطابي، ت: أحمد يوسف الدّقاق، دار الثقافة العربية، ط:٣-١٤١٢هـ ١٩٩٢م. ص١١٢،١١١.

عنه، واختلفوا حيث لا إذن ولا منع في جواز إطلاق ما كان – تعالى– متصفًا بمعناه ولم يكن من الأسماء الأعلام الموضوعة من سائر اللغات إذ ليس جواز إطلاقها عليه– تعالى– محل نزاع لأحد بشرط أن لا يكون إطلاقها يوهم نقصًا بل كان مشعرًا بالمدح، فالجمهور منعوا إطلاق مالم يأذن به الشارع مطلقًا، وجوزه المعتزلة مطلقًا، ومال إليه بعض الأشاعرة كالقاضي أبي بكر الباقلاني، وتوقف إمام الحرمين الجويني" [1].

وفصَّل الإمام الغزالي القول في هذه المسألة، فذهب إلى أنه لا يجوز في معرض التسمية أن يسمى الله –تعالى– إلا بما سمى به نفسه، لكن في معرض الإخبار عن وصفه يجوز أن نقول إنه عالم ومرشد ورشيد وهاد وما يجري مجراه، أما الدليل على المنع من وضع اسم لله –تعالى– هو المنع من وضع اسم لرسول الله –صلى الله عليه وسلم– لم يسم به نفسه، ولا سماه به ربه –تعالى– ولا أبواه، وإذا مُنِعَ ذلك في حق الرسول –صلى الله عليه وسلم– فمنعه في حقه –تعالى– أولى، وأما دليل إباحة الوصف فهو على أنه خبر، والخبر يحتمل الصدق والكذب، والكذب حرام إلا بعارض، والصدق مباح إلا بعارض، ومن ثم لا يجوز مطلقًا أن نقول في حق الله وصفًا يوهم النقص لأنه حرام بالدليل الذي حرم الكذب، أما مالا يوهم نقصًا

(1) لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية لشرح الدرة المضية في عقد الفرقة المرضية، لشمس الدين السفاريني ، مؤسسة الخافقين ومكتبتها، دمشق، ط:٢– ١٤٠٢هـ ١٩٨٢م. ١/١٢٤، ١٢٥.

وإنما يدل على الثناء والمدح فهو مباح بالدليل الذي أباح الصدق مع السلامة من العوارض المحرمة[1].

ب- معنى اسم اللّه العليم

يقال علم الشَّيْء علما أي عرفه، قال تعالى: ﴿لَا تَعْلَمُونَهُم اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ وعلم الشَّيْء وعلم به أي شعر بِهِ ودرى، وفي القرآن الكريم ﴿قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي﴾ وعلم الشَّيْء حَاصِلا، أي: أَيقَن بِهِ وَصدَّقَه، تَقول: علمت الْعلم نَافِعًا، وَفِي التَّنْزِيل الْعَزِيز ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ﴾ واسم الفاعل منه عَالم، والجمع عُلَمَاء، و(الْعَلِيم) كثير الْعلم والجمع منه عُلَمَاء أيضًا[2].

وعَلِيمٌ، فَعِيلٌ: من أبنية المبالغة. ومن صفات الله عز وجل العَلِيم والعالِمُ والعَلاَّمُ؛ فهو سبحانه لم يَزَل عالِماً ولا يَزالُ عالمًا بما كان وما يكون، ولا يخفى عليه خافيةٌ في الأرض ولا في السماء، أحاطَ عِلْمُه بجميع الأشياء باطِنِها وظاهِرِها دقيقِها وجليلِها على أتمّ الإمْكان[3].

---

(1) ينظر: المقصد الأسنى في شرح معاني أسماء الله الحسنى للإمام أبي حامد لغزالي، ت: بسام عبد الوهاب الجابي، م: الجفان والجابي، قبرص. ط:١، ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م. ص١٧٣، ١٧٤.

(2) ينظر: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، دار الدعوة، ٦٢٤/٢.

(3) ينظر: اللسان لابن منظور، مادة " ع ل م " دار صادر، بيروت، ط:٣- ١٤١٤هـ. ٤١٦/١٢.

والعليم والعالم بِمَعنى وَاحِد، لكن العَلِيم فِيهِ صفة زَائِدَة على مَا فِي الْعَالم، فعليم فِي اسْم الله تَعَالَى يُفِيد الْعلم بالغيوب[1].

وعالم اسم الفاعل من علم يعلم، والعليم من أبنية المبالغة في الوصف بالعلم وهو بمنزلة قدير من القادر. وعليم وعالم يشتركان من وجه ويختلفان من آخر، فقد يتعلق عليم بالمفعول بحرف خفض كما قال عز وجل: ﴿عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ فهو بمنزلة قولك: عالم بذات الصدور، أي يعلمها. فعليم وعالم في هذا سواء. وقد يأتي عليم على تأويل آخر يفارق فيه «عالم»، وهو أن يراد بعليم مدح الذات بالعلم، فيراد به أن ذاته عالمة لا يجوز عليه الجهل، فيصير من باب شريف وكريم، فهو من مدح الذات بالعلم وأنها مخالفة لذات ما يجهل أو يجوز عليه الجهل، لا أنه يراد به إيقاع الفعل. فأما عالم فمتعلق بالمعلوم فهو موافق لعليم في الوجه الأول، ومخالف له في الوجه الثاني[2].

واسمه تعالى العليم مَعْنَاهُ ظاهر، فعلمه من حيث كثرة المعلومات محيط بكل شيء ظَاهره وباطنه، دقيقه وجليله، أَوله وَآخره، عاقبته وفاتحته. وعلمه من حَيْثُ الوضوح والكشف على أتم مَا يُمكن فِيهِ، بِحَيْثُ لَا يتَصَوَّر مُشَاهدَة وكشف أظهر مِنْهُ، ثمَّ علمه ليس مستفادًا من المعلومات بل المعلومات مستفادةٌ منه. و للْعَبد حَظٌّ من وصف الْعَلِيم لَا يكَاد يخفى وَلَكِن يُفَارق علمه علم الله تَعَالَى فِي الْخَواص الثَّلَاث: فمن حيث المعلومات فِي كثرتها

(1) ينظر: تفسير أسماء الله الحسنى للزجاج، ت: أحمد يوسف الدقاق، دار الثقافة العربية، ص٣٩، ٤٠.

(2) ينظر: اشتقاق أسماء الله لعبد الرحمن بن إسحاق البغدادي الزجاجي، ت: د.عبد الحسين المبارك، مؤسسة الرسالة، ط:٢، ١٤٠٦هـ – ١٩٨٦م. ص ٥٠، ٥١.

فمَعْلُومَات العَبْد وَإِن اتسعت فَهِيَ محصورة فِي قلبه فَأنى يُنَاسب مَا لَا نِهَايَة لَهُ، ومن حيث الكشف والوضوح فإنَّ علم العبد وَإِن اتَّضَح فَلَا يبلغ الْغَايَة الَّتِي لَا يُمكن وَرَاءَهَا بل تكون مشاهدته للأشياء كَأَنَّهُ يَرَاهَا من وَرَاء ستر رَقِيق. وعلم الله – تَعَالَى– بالأشياء غير مُسْتَفَادٍ من الْأَشْيَاء بل الْأَشْيَاء مستفادة مِنْهُ وَعلم العَبْد بالأشياء تَابع للأشياء وَحَاصِل بهَا [1].

جـ - اسم اللّه العليم في القرآن الكريم

اسم الله العليم من أكثر أسمائه تعالى ورودًا في القرآن الكريم، فقد ورد هذا الاسم لله تعالى في أكثر من مائة وخمسين موضعًا، فقد أحاط علمه بكل شيء ولا يعزب عن علمه مثقال ذرة في السماوات والأرض، وقد جاء اسم الله العليم معرفًا بالألف واللام في اثنين وثلاثين موضعًا، وجاء مجردًا من التعريف في مائة وتسعة عشر موضعًا، وتارة يأتي هذا الاسم منفردًا غير مقترن بغيره من أسمائه تعالى, وتارة يأتي مقترنًا باسم آخر من أسمائه، وأكثر أسماء الله تعالى اقترانًا بهذا الاسم هو اسم الله السميع، فقد اقترن اسم الله السميع باسمه العليم في واحد وأربعين موضعًا، وفي كل هذه المواضع بلا استثناء تقدم اسمه تعالى السميع على اسمه العليم، واقترن اسمه تعالى العليم باسمه الحكيم في خمسة وثلاثين موضعًا، وباستقراء هذه المواضع نجد أن اسمه تعالى العليم تقدم على اسمه الحكيم في ثمانية وعشرين موضعًا، بينما تقدم اسمه الحكيم على اسمه العليم في سبعة مواضع فقط، واقترن اسمه تعالى العليم باسمه الواسع في سبعة مواضع، وفي هذه المواضع السبعة تقدم اسمه الواسع على اسمه العليم، ثم اقترن اسمه تعالى العليم باسمه العزيز في ستة مواضع تقدم فيها اسمه العزيز على اسمه

(1) ينظر: المقصد الأسنى للغزلي: ص٨٦،٨٧.

العليم، واقترن اسمه تعالى العليم باسمه الخبير في أربعة مواضع تقدم فيها اسمه العليم على اسمه الخبير، واقترن اسمه تعالى العليم باسمه القدير في أربعة مواضع كذلك تقدم فيها اسمه العليم على اسمه القدير، واقترن اسمه العليم باسمه الحليم في موضعين تقدم اسمه العليم في كليهما، واقتران اسمه الشاكر باسمه العليم في موضعين تقدم فيهما اسمه الشاكر، واقترن اسمه الخلاق باسمه العليم في موضع واحد تقدم فيه اسمه الخلاق، وأخيرًا اقترن اسمه العليم باسمه الفتاح في موضع واحد تقدم فيه اسمه الفتاح.

د- اسم اللّه العليم في سورة البقرة

أما عن اسم الله العليم في سورة البقرة فقد ذيلت به إحدى وعشرون آية من آياتها، وجاء محلى بالألف واللام في ثلاثة منها، ومجردًا من الألف واللام في ثمانية عشر موضعًا، وجاء منفردًا عن غيره من أسماء الله تعالى في ثمانية مواضع، وجاء مقترنًا بغيره من أسمائه تعالى في ثلاثة عشر موضعًا، حيث اقترن اسم الله العليم باسمه السميع في سبعة مواضع، واقترن باسمه الواسع في أربعة مواضع، واقترن باسمه الحكيم في موضع واحد، واقترن باسمه الشاكر في موضع كذلك. وبالنظر في تلك المواضع نجد أن اسم الله العليم عبر به في مقامات متعددة وسياقات متنوعة، فقد آثر السياق التعبير بهذا الاسم لله تعالى في تلك المقامات:

١- الحديث عن قدرة الله تعالى على الخلق والبعث.

٢- الحديث عن العقائد.

٣- الحديث عن العبادات والشعائر.

٤- الأحكام الشرعية بأنواعها من وصية ونكاح وطلاق وبيع وشهادة.

٥- الحث على الإنفاق في سبيل الله.

والتعبير بالأسماء الحسنى في فواصل تلك الآيات وغيرها، يثري تلك الفواصل بدلالات لا تحصى من ظلال هذه الأسماء التي لها طابع القداسة والأهمية، وبالمقابل ترد الفواصل الجميل للأسماء الحسنى إذ تنزلها منزلًا حسنًا في ختام الآيات، وتبذل لهلا النصيب الأوفى من النفوس والأسماع لأنها آخر ما يتناهى إلى القارئ والسامع من الآيات؛ فإذا وطدت هذا الختام بوشائج العلاقات مع القرائن من تمكين وتوشيح وتصدير وإيغال- وهذا دأبها- أوفت على الغاية برد الجميل، أضف إلى ذلك ما تعطيه تلك الأسماء الحسنى من إيقاع لاسيما وأن أكثرها مردوف بأحد حروف المد، مما يترك صداه الآسر في موقعه من الفاصلة، وفي تناغمه مع الطابع العام للفواصل[١].

وفيما يلي أتناول هذه المقامات التي آثر السياق فيها التعبير باسم الله العليم في سورة البقرة بالبحث والدراسة، سائلا الله تعالى العون والتوفيق، وأن يعلمنا من علمه، ويفتح علينا من أبواب رحمته وفضله.

(١) ينظر: الفاصلة في القرآن لمحمد الحسناوي، دار عمار، ط:٢- ١٤٢١هـ ٢٠٠٠م. ص٣١٤.

المبحث الأول

التعبير باسم الله العليم في مقام الحديث عن قدرته تعالى على الخلق والبعث

العلاقة بين العلم والقدرة على الخلق من العدم، ثم البعث بعد الموت والفناء، علاقةٌ ظاهرةٌ واضحةٌ، فكيف يقدر على الإيجاد من العدم، ثم الإعدام بعد الإيجاد، ثم البعث بعد الإعدام، كيف يقدر على ذلك كله من لا علم له بخواص الأشياء ودقائق الأمور؟! إذ لو كان الإيجاد أو الخلق قائمًا على غير علم لكان خلقًا مشوهًا لا نفع فيه، وكذا بلا علم لا يمكن إعادة الشيء بعد إعدامه كما كان على هيئته الأولى وصورته التي كان عليها، ومن هنا وجدنا الآيات القرآنية التي تتحدث عن قدرة الله على الخلق، وقدرته على البعث بعد الموت، غالبًا ما تختم باسم الله العليم، وتأمل معي على سبيل المثال قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ(٧٧) وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾[سورة يس/٧٧،٧٨،٧٩] والآيات الكريمة تتحدث عن خلق الإنسان من العدم، وقدرة الله على بعثه بعد أن يبلى، فمن أنشأه أول مرةٍ قادرٌ على رد الحياة إليه وبعثه من جديد، ولا عجب في ذلك فهو بكل خلق عليم، فمن أحاط علمه بسائر خلقه، لا شك قادر على بعثهم.

ثم قال عقب هذه الآيات ﴿ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴾[سورة يس/٨١] فذيل الآية باسمه (الخلاق

العليم)، وكما هو واضح قرن بين العلم والخلق في موضعين متتاليين مما يدل على أن الخلق لابد أن يصحبه علم.

وتأمل معي كذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (٩٥) فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾[سورة الأنعام/٩٥،٩٦] والآيات كما نرى تتحدث عن آيات الله في الكون، وقدرته على إخراج الحي من الميت، والميت من الحي، ثم ذيلت باسمه تعالى العزيز العليم. فمن خلق هذا الخلق وأبدعه في هذه الصورة التي بلغت الغاية في الدقة والتناسق–بحيث لا ترى فيه من تفاوت ولو قلَّبت فيه البصر لارتد خاسئًا وهو حسير– لا شك على علم تام بكل جزئية من جزئياته بل بكل ذرة من ذراته، إذ يستحيل أن يصدر مثل هذا الخلق عن جاهلٍ أو يكون وليد صدفةٍ، تعالى الله عما يقول الظالمون علوًا كبيرًا.

ثم تأمل معي الآيات الكريمة من سورة فصلت، والتي تحدث الله فيها عن خلق الأرض والجبال، وتقدير الأقوات، ثم خلق السماوات، ثم ذيل ذلك كله بقوله: ﴿ ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾[سورة فصلت/١٢]

ويتضح من هذه الآيات وغيرها مدى الصلة الوثيقة والعلاقة القوية بين العلم والقدرة على الخلق والبعث، فهي من الوضوح بحيث لا تحتاج إلى مزيد بين.

وفي سورة البقرة ربط الله سبحانه بين سعة علمه وقدرته على الخلق والبعث في موضعين متتابعين، أما الموضع الأول فهو قوله

تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٨) هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة/٢٨،٢٩]

افتتحت الآيات الكريمة بالاستفهام المفيد للإنكار والتعجب، فهو ينكر عليهم الكفر، ويتعجب من وقوعهم فيه مع ما توافر لديهم من أدلة لو تدبروها وأعملوا عقولهم فيها لقادتهم بلا ريب إلى الإيمان، ولكنَّهم لما لم يتدبروا تلك البراهين، ولم يعملوا تلك العقول؛ استحقوا التوبيخ والإنكار، ومن أظهر هذه الأدلة التي كان ينبغي عليهم تدبرها إيجادهم من العدم، فقد أحياهم وأوجدهم من لا شيء، وخلق الأرض بما فيها من جمادات ونباتات وحيوانات، وسخر كل ذلك لهم لينتفعوا به، وخلق السماوات في أجمل صورة وأبدع نظام، وكل ذلك لا يصدر إلا عن عليم أحاط علمه بكل شيء، ولا يخفى عليه شيء، ومن ثم كيف سوغت لهم عقولهم المأفونة أن يكفروا به أو أن يشركوا معه غيره؟!

و(كيف) إنكار للحال، وهي هنا بمعنى الهمزة في إفادة التوبيخ والإيذان باستحالة الفعل، فقوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ﴾ مثل قولك: أتطير بغير جناح، وكيف تطير بغير جناح؟ فكأنه قال: أتكفرون؟ فأخرج الكفر بالله في صورة المستحيل مع أنه واقع؛ لِما قوي من الصارف عن الكفر والداعي إلى الإيمان. وإفادة الهمزة لإنكار الفعل والإيذان باستحالته في نفسه أو لقوة الصارف عنه أمرٌ بينٌ، أما «كيف» فهي إنكار للحال التي يقع عليها كفرهم، ولكن لما كانت حال الشيء تابعة لذاته، فإذا امتنع ثبوت الذات تبعه امتناع ثبوت الحال، فكان إنكار حال الكفر لأنها تبع لذات الكفر ورديفه

إنكارًا لذات الكفر، وثباتها على طريق الكناية، وذلك أقوى في الإنكار وأبلغ[1].

فالتعبير بقوله: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ﴾ أشد إنكارًا وأكثر توبيخًا من التعبير بـ " أتكفرون" لأن الاستفهام بالهمزة يتسلط فيه الإنكار على الفعل وهو الكفر مباشرة ، أما الاستفهام بكيف يتسلط فيه الإنكار والتوبيخ على الحال التي هم عليها من الكفر، وتلك الحال إنما هي تابعة للذات، فكان إنكار الحال إنكارا للذات، وبذلك يحصل الإنكار مرتين، مرة بما دل عليه صريح اللفظ من إنكار الحال، والأخرى بما دل عليه مدلول اللفظ من إنكار الذات.

وقوله: ﴿فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ جاء العطف الأول بالفاء والبواقي بثمَّ؛ لأن الإحياء الأول قد يعقب الموت بغير تراخ، وأما الموت فقد تراخى عن الإحياء، والإحياء الثاني كذلك متراخ عن الموت إن أريد به النشور تراخيًا ظاهرًا [2].

وهنا نكتة، ذلك أن الحياة بعد العدم، ثم الموت بعد الحياة من الأمور المشاهدة التي علموها، أما الحياة بعد الموت، ثم الرجوع إلى الله، من الأمور الغيبية التي لم يعلموها، لكنه –سبحانه– ساق تلك الأمور الغيبية مساق المعلوم الذي لا عذر فيه؛ لوجود الأدلة الدالة علية والمشيرة إليه

---

(1) ينظر: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل للزمخشري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط:3– ١٤٠٧هـ،١/١٢١.

(2) ينظر: مفاتيح الغيب للرازي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط:3– ١٤٢٠هـ،٢/٣٧٦.

لاسيما وفي الآية تنبيه على ما يدل على صحة البعث والرجوع إلى الله وهو: أنه تعالى لما قدر على إحيائهم أولًا قدر على أن يحييهم ثانيًا، فإنَّ بدء الخلق ليس بأهون عليه من إعادته [1].

ويرى البيضاوي أن " ثُمَّ " في قوله: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء﴾ ليست للتراخي في الوقت، وإنما لبيان التفاوت ما بين الخلقين، وفضل خلق السماء على خلق الأرض، إذ جعلها للتراخي مخالف لظاهر قوله تعالى:﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ [النازعات/٣٠] فإنه يدل على تأخر دحو الأرض وخلق ما فيها عن خلق السماء وتسويتها [2].

وإن كنت أرى- والله أعلم- أن قوله: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ ليس دالًا على تأخر خلق الأرض عن خلق السماء، لاسيما وأن الآية التي نحن بصددها وكذا آية فصلت تدلان على أن خلق الأرض كان قبل خلق السماوات، والجمع بين هاتين الآيتين وقوله:﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ أن هذه الآية تحدثنا عن دحو الأرض واتزان حركتها وجعلها ممهدة وقابلة للحياة بدليل قوله بعد: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءهَا وَمَرْعَاهَا وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ [النازعات/٣١-٣٣] فإن هذه الآيات تدل على خروج الماء، ومن ثم المرعى، وثبات الأرض واتزانها بالجبال، وتهيئتها للحياة والعيش، وجعلها صالحة لاستقبال الإنسان والحيوان وسائر الأحياء.

---

(1) ينظر: أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي، ت: محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط:١ ١٤١٨هـ، ٦٥/١.

(2) ينظر: أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي:٦٦/١.

والاستواء في قوله: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى﴾ فيه عدة وجوه، أحدها: أنه بمعنى قصد وعمد، وهو استعارة من قولهم: استوى إليه كالسهم المرسل إذا قصد إليه قصدًا مستويًا من غير أن يلوي على شيء، ثانيها: أنه بمعنى علا وارتفع من غير تكييف ولا تحديد، والتقدير: علا أمره وسلطانه، ثالثها: أن يكون "إلى" بمعنى "على"، والتقدير: استوى على السماء، أي تفرد بملكها ولم يجعلها كالأرض ملكًا لخلقه، رابعها: أن الكلام على حذف مضاف والتقدير: استوى أمره إلى السماء، وخامسها: أن استوى بمعنى تم وكمل، والمعنى كمل صنعه فيها، كما تقول استوى الأمر إذا تم، إلى غير ذلك من الوجوه والتأويلات التي تنزِّه الله عن التشبيه بمخلوقاته، إذ يستحيل أن يتصف الله تعالى بالانتقال المعهود في غيره، أو أن يحل فيه حادث، أو يحل هو في حادث [1].

وقد ختمت الآية الكريمة بقوله تعالى: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ والتعبير باسم الله العليم، وإيثار هذا الاسم على غيره من أسمائه تعالى، جاء متوافقًا تمام التوافق مع ما سبقه من معان، ومتلائمًا مع السياق، ولك أن تقول إن السياق استدعاه استدعاءً وطلبه طلبًا، ولو حاولت هنا وضع اسم من أسماء الله تعالى غير اسمه العليم، لما كان التركيب بهذه الدقة التي هو عليها؛ ذلك أن خلق الإنسان، ثم إماتته، ثم بعثه بعد ذلك من موته ورجوعه إلى الله –والرجوع إليه لا شك يقتضي سؤال العبد لاسيما من كفر عن سبب كفره– وكذا خلق الأرض وما فيها من كائنات، وخلق السماوات بما فيها من كواكب وأفلاك، كل ذلك يحتاج إلى علم ليس أي علم، بل علم محيط بكل

(1) ينظر: البحر المحيط، لأبي حيان الأندلسي، ت: صدقي محمد جميل، دار الفكر، بيروت ط:١٤٢٠هـ، ٢١٧/١.

شيء مهما صغر و دق، ولذا وجدنا التعبير بقوله: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ بما يفيده التعبير بلفظ (كل) من شمول واستغرق، وما يفيده التنكير في شيء من عموم، وما تفيده صيغة المبالغة في عليم من دقة هذا العلم وكثرته.

ولعل قائلا يقول لم عبر هنا باسمه العليم دون اسمه القدير؟ فلم لم يقل: وهو على كل شيء قدير؟، مع ما فيه كذلك من مناسبة للسياق، فالبعث بعد الموت، وكذا الخلق بكل صوره يحتاج إلى قدرة، فلولم يكن قادرًا لما خلق الأرض والسماوات، ولما أعاد الحياة إلى الأموات، لكن بالرجوع إلى السياق نجد أن الآيات الكريمة تتحدث عن مخلوقات مشاهدة بالفعل، فخلق الإنسان من عدم، وكذا تلك السماوات بما تشتمل عليه من أجرام، وهذه الأرض وما فيها من جبال وأودية وبحار وأنهار وغيرها، تدل من الوهلة الأولى على قدرة من خلقها، وهي كذلك تدل على علمه، لكن دلالتها على القدرة أظهر من دلالتها على العلم، فقد لا يدرك الإنسان دلالتها على علمه –تعالى– إلا بعد التعمق والتبصر في تلك المخلوقات، فكم من مخلوقات نراها وننظر إليها ولكن رؤيتنا لها تدلنا على قدرته، ولكن بالتعمق والنظر الدقيق في خواص تلك المخلوقات نستطيع أن ندرك واسع علمه، ومثل هذا التعمق في خلق الله من أرض وسماء وفضاء وعوالم لا يتاح لأكثرنا، وإن أتيح لفئةٍ من العلماء في كل تخصص وليس لكل العلماء فضلا عن غيرهم، ومن هنا يظهر أنه من اليسير إدراك قدرته، لكن إدراك واسع علمه وإحاطته بكل شيء يحتاج إلى إعمال العقول والتدبر، لما كان الأمر كذلك نبه هنا على واسع علمه وإحاطته بكل شيء، ولم يحتج إلى التنبيه على قدرته لأنها بالضرورة ظاهرة بمجرد النظر فيما خلقه وأبدعه.

وقد أورد السيوطي في الإتقان هذه الآية الكريمة ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ وقوله تعالى فِي سورة آلِ عِمْرَانَ: ﴿قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران/٢٩] ثم ذكر أن المتبادر إلى الذهن في آية البقرة الختم بـ (القدرة)، وفي آية آل عمران الختم بـ (العلم). وبين أن الجواب أن آية البقرة لما تضمنت الإخبار عن خلق الأرض وما فيها على حسب حاجات أهلها ومنافعهم ومصالحهم، وخلق السموات خلقًا مستويًا محكمًا من غير تفاوت، والخالق على الوصف المذكور يجب أن يكون عالمًا بما فعله كليًا وجزئيًا مجملاً ومفصلاً، ناسب ختمها بصفة (العلم)، وآية آل عمران لما كانت في سياق الوعيد على موالاة الكفار، وكان التعبير بالعلم فيها كناية عن المجازاة بالعقاب والثواب ناسب ختمها بصفة القدرة[١].

فالنظرة العجلى في آية آل عمران توهم أن تكون الفاصلة (وهو بكل شيء عليم)، لكن بإنعام النظر وإطالة التأمل يتضح أن المناسب هو ختم الآية بالقدرة، فاتخاذ المؤمنين الكافرين أولياء من دون المؤمنين لا يكون إلا بزعم المتخذ أن الكافر يملك ويقدر على مالا يقدر عليه المؤمن من نفع، ولذا حذر الله من يفعل ذلك من المؤمنين، وبين لهم أن إليه مصيرهم، وأنه عليم بما يخفون ويبدون، بل هو عليم بما في السماوات والأرض، وهو وحده القادر على تحقيق النفع لهم، فينبغي على المؤمن أن يلجأ إلى قدرته تعالى

(١) ينظر: الإتقان للسيوطي، ت: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط:١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م، ٣/٣٥٣.

ويستظل بها، وألا يوالي الكافرين إذ لا قدرة لهم على نصره، وإنما القادر الله، وبهذا يتضح أن ختام آية آل عمران بالقدرة هو المناسب لسياق النظم الكريم[١].

فالتعبير باسم الله العليم في آية البقرة هو الأكثر ملاءمة والأشد مناسبة للسياق، والترابط بين استعمال هذا الاسم من أسمائه تعالى وبين السياق الذي ورد فيه لا يكاد يخفى على ذي بصر، ومن ثم تحققت الميزة المنشودة من هذا الترابط الحاصل بين السياق واستعمال هذا الاسم من أسمائه دون غيره، والمتمثلة في هذ التناسق والتناغم الطبيعي بين أجزاء الكلام، بحيث ترى الألفاظ وقد نظمت نظمًا بديعًا، فكل لفظة وضعت في موضعها وأدت دورها في إبراز المعنى في أوضح صورة و أدق عبارة، إن ألفاظ السياق من أوله إلى آخره يعاضد بعضها بعضا، ويوآزر كل منها صاحبه في أداء المعنى المراد وهو إثبات طلاقة قدرته تعالى وسعة علمه.

وفي هذا المعنى يقول الإمام عبد القاهر: " فقد اتضح إذن اتضاحًا لا يدع للشك مجالًا أن الألفاظ لا تتفاضل من حيث هي ألفاظ مجردة، ولا من حيث هي كلم مفردةٌ، وأن الفضيلة وخلافها، في ملاءمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها وما أشبه ذلك مما لا تعلُّق له بصريح اللفظ " [٢].

فميزة الكلام وفضيلته تتحقق بقدر ما تحقق فيه من تناغم وملاءمة بين ألفاظه، مع مواءمة تلك الألفاظ للمقام ومناسبتها للسياق.

---

(١) ينظر: علم البديع دراسة تاريخية وفنية لأصول البلاغة ومسائل البديع، د. بسيوني عبدالفتاح فيود، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، ط:٤، ١٤٣٦هـ ٢٠١٥م، ص١٦٣.

(٢) دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر، ت: محمود شاكر، مطبعة المدني بالقاهرة، ط:٣، ١٤١٣هـ ،١٩٩٢م ص٤٦.

يقول الدكتور حماسة: " ولا تكون للعلاقة النحوية ميزة في ذاتها، ولا للكلمات المختارة ميزة في ذاتها، ولا لوضع الكلمات المختارة في موضعها الصحيح ميزة في ذاتها ما لم يكن ذلك كله في سياق ملائم " (١).

وأما الموضع الثاني الذي قرن فيه سبحانه بين قدرته على الخلق وعلمه فقد جاء عقب الموضع السابق مباشرة، حيث يقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٣٠) وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٣١) قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ [البقرة/ ٣٠، ٣١، ٣٢]

والموضع السابق كان الحديث فيه عن الخلق بصفة عامة، أما هذا الموضع فالحديث فيه عن خلق آدم واستخلافه في الأرض بصفة خاصة، عنايةً بهذا المخلوق لما له من مزيد فضل وتكريم، حيث فضله الله وكرمه على كثير ممن خلق، فجعله خليفة في أرضه وسخرها له، وقد خفيت على الملائكة الحكمة من خلق الله لآدم واستخلافه في الأرض دونهم، وما ذلك إلا لقصور علمهم.

وافتتح هذا الموضع بقوله سبحانه: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ﴾ والإتيان بلفظ الرب هنا في غاية من المناسبة والبيان؛ لأنَّه لمَّا ذكر أنَّه خلق هذه الأرض

(١) النحو والدلالة (مدخل لدراسة المعنى النحوي الدلالي) د. محمد حماسة عبد اللطيف، دار الشروق، ط:١، ١٤٢٠هـ ٢٠٠٠م، ص98.

وسخَّرها لهم لصلاح أحوالهم ومعايشهم، ناسب أن يذكر هنا الرب بما يشعر بـه هـذا اللفـظ مـن تربيتـه لخلقـه وعنايتـه بشـئونهم ومـا يُصـلح معاشـهم، والخطاب للنبي –صلى الله عليه وسلم–، وفي إضافة لفظ الرب إلى النبي تنبيه على شرفه واختصاصه بخطابه، وهزٌ لاستماع ما يذكر بعد ذلك من غريب افتتاح هذا الجنس الإنساني، وابتداء أمره ومآله، وهو من التنويع في الخطاب والخروج من الخطاب العام إلى الخاص، وفيه إشارة إلى أن المقبل عليه بالخطاب له الحظ الأعظم والقسم الأوفر من الجملة المخبر بها [1].

والاستفهام في قوله: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾ ليس أنكارًا منهم على ربهم إذ لو كان كذلك لكفروا، وإنَّما الاستفهام على حقيقته فهم سألوا ليعلموا، أو قالوا ذلك لانهم كرهوا أَنْ يُعْصى الله، لأنَّ الجنَّ قد كانت أُمرت قبل ذلك فعصت [2].

ويجوز أن يكون قولهم هذا من باب الإيجاب والتقرير وإن خرج مخرج الاستفهام، كما قال جرير:

أَلَسْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ الْمَطَايا ... وَأَنْدَى الْعَالَمِينَ بُطُونَ رَاحِ[3]

وعليه فقولهم هذا ربما يكون من باب الظن والتخمين، ودعاهم إليه ما رأوه من الجن، فقد أفسدوا في الأرض، وسفكوا الدماء، فتصوروا أنه إن استخلف استخلف في الأرض من يفسد ويسفك الدماء. أو أنهم قالوه

---

(1) ينظر: البحر المحيط:٢٢٥/١.

(2) ينظر: معانى القرآن للأخفش، ت: د. هدى محمود قراعة، م: الخانجي، القاهرة، ط:١٤١،١هـ١٩٩٠م، ٦٣/١.

(3) ديوان جرير بشرح محمد بن حبيب، ت: د. نعمان محمد أمين طه، دار المعارف، القاهرة، ط:٣، ٨٩/١.

استعظامًا لفعلهم، أي كيف يفسدون فيها، ويسفكون الدماء، وقد أنعمت عليهم، فقال: إني أعلم ما لا تعلمون. أو أنهم قالوه تعجباً وطلبًا لوجه الحكمة فيه [1].

وفي هذا ما يدل – والله أعلم– على أن الملائكة كانت تتوق لنيل هذه المنزلة التي حظي بها آدم من الخلافة في الأرض، لاسيما وأنهم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، أضف إلى ذلك أنهم كانوا مطالعين لما وقع من الجن من خروج عن الطاعة وإفساد في الأرض، فظنوا أن آدم وذريته سيكون منهم ما كان من الجن من الإفساد وسفك الدماء، ولكن غاب عنهم أن الله قد خلق آدم واستخلفه لمهمة لا يصلحون هم لها، وتتمثل تلك المهمة في عبادة الله اختيارًا لا إجبارًا، وعمارة الأرض وإصلاحها بكل وجوه الإصلاح والعمارة، ولذا زوده الله بالعلم ومنحه العقل، وجعل فيه قدرة على التفكير والاستنباط، وقدرة على تعلم المعلومات ونقلها لغيره وتعلمها من غيره.

والملائكة لا علم لهم بالغيب، وإنما علموا أنَّ هذا الخليفة سيفسد في الأرض بإعلام الله لهم، وعليه ففي الكلام إيجاز بالحذف، والتقدير: أن الله تعالى قال لهم: إني جاعل في الأرض خليفة، فقالوا: وما يكون من ذلك الخليفة؟ قال: تكون له ذرية، يفسدون في الأرض ويقتل بعضهم بعضا. قالوا عند ذلك: أَتَجْعَلُ فِيها من يفسد فيها ويسفك الدماء؟ والذي عليه أكثر المفسرين: أن الملائكة قاسوا بالشاهد على الغائب فقاسوا آدم وذريته على

(1) ينظر: النكت والعيون للماوردي، ت: السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية، بيروت،١/٩٦.

الجن واستنتجوا أنَّه كما وقع الفساد وسفك الدماء من الجنِّ سيقع من بني آدم كذلك [1].

وعبر سبحانه بالموصول وصلته في قوله: ﴿ مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ ﴾ للإيماء إلى وجه بناء الكلام وهو الاستفهام والتعجب، لأنَّ من كان شأنه الفساد وسفك الدماء لا ينتظر منه تعمير للأرض إذ سرعان ما ينقض ما عمره، وعطف سفك الدماء على الفساد مع أنَّه داخل فيه من باب عطف الخاص على العام اهتمامًا بذلك الخاص، وكرر ضمير الأرض (فِيهَا) للاهتمام بها والتذكير بشأن عمرانها. وأوثر التعبير بالمضارع في قوله: يفسد ويسفك لأن المضارع يدل على التجدد والحدوث دون الدوام إذ الفساد والسفك ليسا بمستمرين من البشر. بينما أُوثرت الجملة الإسمية في قوله: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾ للدلالة على الدوام والثبوت وأن هذا من صفاتهم الملازمة لهم وتقديم المسند إليه على المسند الفعلي يحتمل أن يكون لقصد التخصيص أي: نحن الدائمون على التسبيح والتقديس دون هذا المخلوق والأظهر أن التقديم هنا لمجرد تقوية الحكم [2].

وقوله: ﴿قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ليس المراد منهَ بيانَ أنَّه تعالى يعلم مالا يعلمونه من الأشياءِ كائنًا ما كان، فإن ذلك مما لا شُبهة لهم فيه حتى يفتقِروا إلى التنبيه عليه، بل المراد بيان أنَّ آدم عليه السلام فيه معان

---

(1) ينظر: الكشف والبيان عن تفسير القرآن للثعلبي بتصرف، ت: ابن عاشور، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط:١ ١٤٢٢هـ ٢٠٠٢م، ١/١٧٥، ١٧٦.

(2) ينظر: التحرير والتنوير لابن عاشور، الدار التونسية للنشر، تونس١٩٨٤هـ، ١/٤٠٢، ٤٠٣، ٤٠٦.

مستدعية لاستخلافه، فتلك المعاني هي التي خفيت عليهم وبنَوا على ذلك ما بنوا من التعجّب والاستبعاد، ولم يقتصِر على بيان تحقق تلك المعاني فيه –عليه السلام– من غير تعرض لإحاطته تعالى به وغفلتِهم عنه تفخيماً لشأنه وإيذانًا بابتناء أمرِه تعالى على العلم الرصينِ والحكمةِ المتقنة وصدورِ قولِهم عن الغفلة [1].

وقوله: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ فيه تشريف وتكريم لآدم حيث علمه من علمه وفضله بهذا العلم على ملائكته، وفيه دليل على أن الأنبياء أفضل من الملائكة [2].

وفي الجملة إيجاز بالحذف إذ التقدير: وعلم آدم أسماء المسميات فحذف المضاف إليه؛ لكونه معلومًا مدلولًا عليه بذكر الأسماء، لأن الاسم لا بد له من مسمى، وعوض منه اللام.

ولا يسوغ القول هنا بأن المحذوف هو المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه، وأن الأصل: وعلم آدم مسميات الأسماء؛ لأن التعليم وجب تعليقه بالأسماء لا بالمسميات لقوله: ﴿أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ﴾ و﴿أَنبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾ و﴿فَلَمَّا أَنبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾ فكما علق الإنباء بالأسماء لا بالمسميات، ولم يقل: أنبؤنى بهؤلاء، وأنبئهم بهم، وجب تعليق التعليم بها [3].

---

(1) ينظر: إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ٨٣/١.

(2) ينظر: تفسير السمعاني بتصرف، دار الوطن، الرياض، ط:١، ١٤١٨هـ– ١٩٩٧م، ٦٥/١.

(3) ينظر: الكشاف:١٢٦/١.

وقوله تعالى: ﴿أَنبِئُونِي﴾ أمرٌ قصد به التعجيز، فهو سبحانه عالم بعدم قدرتهم على إخباره بتلك الأسماء التي علمها لآدم، لكنه أراد أن يكشف عجزهم، ويظهر لهم عدم قدرتهم على علم الغيب؛ حتى يدركوا ضعفهم أمام قدرته، وجهلهم أمام علمه تعالى، وهذا ما أقرت به الملائكة حيث قالوا: ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ وهذه الجملة فيها تنزيه له –سبحانه– عن كل نقص وتنزيه له عما يعتري سائر خلقه – بما فيهم الملائكة– من جهل، وفيها كذلك إثبات لعلم الله وحكمته على أبلغ وجه.

وآثار التعبير بـ (أَنبِئُونِي) على التعبير بأخبروني للإيذان برفعة شأنِ الأسماء وعظمِ خطرها فإن النبأَ إنَّما يطلق على الخبرِ الخطيرِ والأمرِ العظيم [1].

وإذا نظرنا إلى الفاصلة حيث عبر سبحانه بقوله: (إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ) واصطفاء التعبير باسمي العليم والحكيم دون غيرهما لوجدنا أن هذين الاسمين يتوافقان مع السياق تمام الموافقة، بل إنك لو حاولت وضع غيرهما موضعهما لما أمكنك ذلك؛ حيث سيختل النظم وتضطرب العبارة، وقل بربك أي اسمين من أسمائه تعالى يمكن وضعهما موضع هذين الاسمين والسياق من أوله إلى آخره يستدعيهما، ويقتضي التعبير بهما دون غيرهما، فالآيات تتحدث عن مخلوق قد اصطفاه الله ليكون خليفة في الأرض، كرمه الله على سائر خلقه، وأسجد له ملائكته، حتى إن الملائكة وهم مجبلون على الطاعة والتقديس لربهم، لما أُذن لهم في السؤال عنِ شأن

(1) ينظر: إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود:١/٨٥.

هذه المخلوق تعجبوا كيف اصطفاه الله واستخلفه، فهم أحق –من وجهة نظرهم– بالاستخلاف، فالملائكة قد خفيت عليهم الحكمة، وعجزوا عن إدراك الغيب الذي تفرد الله بعلمه، وأمام هذا العجز لما أظهر الله لهم شيئًا من قدرات هذا المخلوق، أدركوا حقيقة ضعفهم وجهلهم أمام قدرة الله وحكمته وعلمه، فما كان منهم إلا أن أقروا له بذلك فقالوا: إنك أنت العليم الحكيم.

وقولهم: ﴿لا عِلْمَ لَنَا إِلا مَا عَلَّمْتَنَا﴾ خبر مراد منه الاعتراف بالعجز لا الإخبار عن حالهم؛ لأنَّهم يوقنون أن الله يعلم ما تضمنه كلامهم، ولم يقصدوا كذلك لازم الفائدة وهي أن الْمُخْبِرَ عالم بالخبر فتعين أن يكون الخبر مستعملا في الاعتراف بالعجز، و" أنت" في قوله: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ ضمير فصل، وتوسيطه من صيغ القصر، والمعنى قصر العلم والحكمة على الله تعالى لردهم اعتقادهم أنفسهم أنهم على جانب من علم وحكمة حين راجعوا بقولهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾ أو تنزيلهم منزلة من يعتقد ذلك أو هو قصر حقيقي ادعائي مراد منه قصر كمال العلم والحكمة عليه تعالى[1].

وهذا التذييل فيه كذلك إشعار بأن سؤالهم كان استفسارًا ولم يكن اعتراضًا، وأنه قد بان لهم ما خفي عليهم من فضل الإنسان والحكمة في خلقه، وإظهار لشكر نعمته بما عرفهم وكشف لهم ما اعتقل عليهم، ومراعاة للأدب بتفويض العلم كله إليه، وفي تصدير الكلام بقوله: ﴿سُبْحَانَكَ﴾

(1) ينظر: التحرير والتنوير: ١/٤١٤، ٤١٦.

اعتذار منهم عن الاستفسار والجهل بحقيقة الحال وهو من قبيل براعة الاستهلال[١].

ثم هم قد نفوا عن أنفسهم العلم بلفظ "لا" التي بنيت معها النكرة، فاستغرق كل فرد من أنواع العلوم، ثم استثنوا من ذلك ما علمهم- سبحانه- إياه، فقالوا: إلا ما علمتنا، وهذا غاية في ترك الدعوى والاستسلام التام للمعلم الأول الله تعالى، ولما نفوا عن أنفسهم العلم أثبتوه لله تعالى على أكمل أوصافه من المبالغة فيه، ثم أردفوا الوصف بالعلم الوصف بالحكمة، وقدم الوصف بالعلم على الوصف بالحكمة؛ لأنه المتصل به في قوله: ﴿وَعَلَّمَ﴾وقوله: ﴿لا عِلْمَ لَنَا﴾ فالذي ظهرت به المزية والفضيلة لآدم هو العلم فناسب ذكره متصًلا به، ولأن الحكمة من آثار العلم وناشئة عنه، ولذلك أكثر ما جاء في القرآن تقديم الوصف بالعلم على الوصف بالحكمة[٢].

ويفاد من هذا أن قولهم: ﴿لا عِلْمَ لَنَا إِلا مَا عَلَّمْتَنَا﴾ جاء تمهيدًا للفاصلة التي ختمت بها الآية، فهم لما جهلوا حقيقة الأمر وخفيت عليهم الحكمة منه، كان من الطبيعي أن يعودوا بإثبات العلم والحكمة له تعالى وحده.

وهذا ما يعرف في علم البديع بالإرصاد هو أن يجعل قبل العَجُز من الفقرة أو البيت ما يدل على العَجُز[٣].

---

(١) ينظر: أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي:١/٧٠.

(٢) ينظر: البحر المحيط:١/٢٣٨، ٢٣٩.

(٣) الإيضاح مع البغية لعبد المتعال الصعيدي، مكتبة الآداب، ط: ١٧- ١٤٢٦هـ- ٢٠٠٥م، ٤/٥٨٧

ومثل هذا النوع محمود في الكلام كله نظمه ونثره، فخير الكلام ما دل بعضه على بعض[1].

ومن ثم كانت هذه الفاصلة مناسبة تمام المناسبة للسياق، وكان إيثار التعبير باسمي العليم والحكيم لأنهما الأليق بالمقام والأوفق بالسياق.

وقد ذكر قدامة من نعوت الشعر ائتلاف القافية مع ما يدل عليه سائر البيت بأن تكون القافية معلقة بما تقدم من معنى البيت وملائمة لما مر فيه. وجعل هذا الائتلاف على نوعين الأول منهما سماه التوشيح وهو أن يكون أول البيت شاهداً بقافيته، ومعناها متعلقاً به، حتى أن الذي يعرف قافية القصيدة التي البيت منها، إذا سمع أول البيت عرف آخره وبانت له قافيته، ومثل له بقول الراعي:

وَإِن وَزِنَ الْحَصَى فَوَزَنْتُ قَوْمِي ... وَجَدْتُ حَصَى ضَرِيبَتِهِم رَزِينَا [2]

فإذا سمع سامع أول هذا البيت، وقد تقدمت عنده قافية القصيدة، استخرج لفظة قافيته، لأنه يعلم أن قوله: وزن الحصى، سيأتي بعده: رزين، لعلتين: إحداهما أن قافية القصيدة توجبه، والأخرى أن نظام المعنى يقتضيه، لأن الذي يفاخر برجاحة الحصى يلزمه أن يقول في حصاه إنه رزين. والثاني سماه الإيغال: وهو أن يأتي الشاعر بالمعنى في البيت تاماً من غير أن يكون للقافية فيما ذكره صنع، ثم يأتي بها لحاجة الشعر، في أن يكون شعراً، ، فيزيد بمعناها في تجويد ما ذكره في البيت، كما قال امرؤ القيس:

---

(1) ينظر: فن البديع، د/عبد القادر حسين، دار الشروق، ط:1- ١٤٠٣هـ ١٩٨٣م، ص٥٩.

(2) ديوان الراعي النميري، جمع/ ريْهَنرات فاييرت، المعهد الألماني للأبحاث الشرقية، بيروت ١٤٠١هـ ١٩٨٠م، ص٢٧٣.

كَأَنَّ عُيُونَ الوَحْشِ حَولَ خِبَائِنَا ... وَأَرْحُلِنَا الجَزْعُ الَّذِي لَمْ يُثَقَّبِ [1]

فقد أتى امرؤ القيس على التشبيه كاملاً قبل القافية، وذلك أن عيون الوحش شبيهة بالجزع، ثم لما جاء بالقافية أوغل بها في الوصف وأكده، وهو قوله: الذي لم يثقب، فإن عيون الوحش غير مثقبة، وهي بالجزع الذي لم يثقب أدخل في التشبيه[2].

وتجد هذا الائتلاف في القرآن –لا سيما في مناسبة الفواصل والتذييل للسياق– بصورة تسترعي الانتباه وتدعو للدهشة، وفي هذا ما يؤكد لنا دقة القرآن الكريم في اختيار الألفاظ ووضعها في الموضع المناسب لها واللائق بها، بحيث لا يمكن بحال انتزعها أو الاستعاضة عنها بغيرها، بل إنك لتكاد تشعر بأن كلمات القرآن نابضة بالحياة نتيجة ما تحويه من إيحاءات ودلالات، ولو حاولت نزع مفردة واستبدالها بمرادفاتها لذهب ماء الجملة بأسرها وكنت كمن يتنزع الحياة منها.

فقد أفاض الله سبحانه على تلك المفردات هذا الفيض، ونفخ فيها من روحه، كما نفخ في عصا موسى، لكنه مع ذلك أبقى على تلك الكلمات طبيعتها التي يعرفها الناس منها، كما أبقى على عصا موسى طبيعتها كذلك" [3].

وبذلك ندرك مدى الأهمية التي تكمن في دراسة مفردات النص الأدبي بصفة عامة ومفردات القرآن المعجز بصفة خاصة، فبدون تلك الدراسة

---

(1) ديوان امرىء القيس، ت/ محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، ط: ٥– ص٥٣.

(2) نقد الشعر لقدامة مطبعة الجوائب، قسطنطينية، ط: ١– ١٣٠٢هـ. ص٦٢ وما بعدها.

(3) إعجاز القرآن لعبد الكريم الخطيب، دار الفكر العربي بمصر ط:١– ٢/٢٩٥.

للمفردات والألفاظ لا يمكننا الوقوف على كل ما انطوى عليه النص من دقائق وأسرار، فالمفردة هي مفتاح النص وزمام ما فيه من دقيق المعاني وخفي الإشارات، وكلما أحس الدارس هذه الوقفات واستشف من المفردات كل ما تعطيه وتلوح به من معنى ووحي ورمز كان أقدر على الاندماج والمشاركة والوصول إلى ما ينبغي الوصول إليه [1].

(1) ينظر: البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري وأثرها في الدراسات البلاغية، د. محمد أبو موسى، م: وهبة، ط:٢- ١٤٠٨هـ ١٩٨٨م. ص٢٦١.

المبحث الثاني

التعبير باسم الله العليم في مقام الحديث عن العقائد

العقيدة بما تشتمل عليه من إقرارٍ بالألوهية، واعترافٍ بالوحدانية، وإيمانٍ بالله ورسله، هي للدين بمنزلة الرأس، ثم العبادات التي افترضها الله على عباده بمنزلة الجسد، ولا قيام للدين بأحدهما دون الآخر، ولذا كان تثبيت العقيدة في قلوب العباد، وإقامة الشعائر والعبادات التي تعبَّدهم الله بها من أولى أولويات القرآن، والعقيد أمر يتعلق بالباطن، والشعائر والعبادات تتعلق بالظاهر، وموافقة الظاهر للباطن لا يطلع عليه نبيٌ مرسلٌ، ولا ملكٌ مقرَّبٌ، وإنما اختص الله وحده بعلم ذلك، وكم من الناس حسن ظاهرهم وخبث باطنهم، وكم منهم من أظهر الإسلام وأبطن الكفر، وكم من المنافقين الذين هم من بني جلدتنا ويَتَسَمون بأسمائنا وهم يضمرون للإسلام السوء ويكيدون لأهله، حتى إن منهم من خفي أمره على النبي نفسه حتى أطلعه الله عليهم وفضحهم بين يديه، وكثيرٌ منهم ستره الله رجاء أن يتوب، وكما قال الله تعالى: ﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ﴾ [التوبة/١٠١]، فصدق العقيدة وإخلاص العبادة مما اختص الله تعالى بعلمه، ولذا وجدنا الآيات التي تتناول جانب العقيدة والعبادة تذيل باسم الله العليم، وعُبِّر باسم الله العليم في مقام تثبيت العقيدة، والدعوة إلى الإيمان بالله ورسله وكتبه، وإفراده سبحانه بالألوهية، ونبذ تلك الآلهة المزعومة، في موضعين من سورة البقرة، وعبر باسمه العليم في مقام الحث على إقامة العبادات والشعائر في ثلاثة مواضع من تلك السورة الكريمة.

فأما الموضعان اللذان عُبر فيهما باسم الله العليم في مقام تثبيت العقيدة فأحدهما قوله تعالى: ﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة الآية:١٣٧] والآيات قبل هذه الآية تدعو إلى الإيمان بالله وما أنزل إلى محمد عليه الصلاة والسلام، وما أنزل إلى الأنبياء من قبلة، وذلك بعد أن زعم كلٌ من اليهود والنصارى أنَّ الهدى فيما يدينون به، والأكثر من ذلك أنهم يدعون المسلمين إلى اتباع دينهم باعتباره الدين الحق.

وقد روي عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ﴾ أنه قال: لا تقولوا: " فإن آمنوا بمثل مَا آمنتم به" فإنه ليس لله مثل، ولكن قولوا: فإن آمنوا بالذي آمنتم به فَقد اهتدوا – أو قال: فإن آمنوا بما آمنتم به. وهذا القول منه على جهة التفسير والتأويل للآية، وكأن ابن عباس – في هذه الرواية إن صحت عنه– يفهم قراءة من قرأ: "فإن آمنُوا بمثل مَا آمنتم به" على أن المعنى: فإن آمنوا بمثل الله، وبمثل ما أنزل على إبراهيم وإسماعيل. وذلك إذا صرف إلى هذا الوجه، شِركٌ عظيم، وضلال مبين، لأنه لا مثل لله، فنؤمن أو نكفر به. ولكن المقبول: فإن صدّقوا مثل تصديقكم بما صدقتم به فقد اهتدوا، فالتشبيه إنما وقع بين التصديقين والإقرارين اللذين هما إيمان هؤلاء وإيمان هؤلاء. كقول القائل: "مرّ عمرو بأخيك مثلَ ما مررتُ به"، يعني بذلك مرّ عمرو بأخيك مثل مُروري به. والتمثيل إنما دخل تمثيلًا بين المرورين، لا بين عمرو وبين المتكلم. فكذلك

قوله: "فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به"، إنما وقع التمثيل بين الإيمانين، لا بين المؤمَنِ به [1].

ويجوز أن تكون الباء في قوله: ﴿بِمِثْلِ﴾ قد زيدت للتوكيد كما زيدت فِي قوله تعالى: ﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ﴾ [مريم/٢٥] وعليه فالمعنى: فإن آمنوا مثل إيمانكم[2].

وقيل «مثل» زائدة كما هي في قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى/١١] ، وقيل: هذا من مجاز الكلام، كما تقول: هذا أمر لا يفعله مثلك، أي لا تفعله أنت، فالمعنى فإن آمنوا بالذي آمنتم به[3].

وذكر الزمخشري أن قوله: ﴿ فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ ما آمَنْتُمْ بِهِ ﴾ من باب التبكيت، لأن دين الحق واحد لا مثل له وهو دين الإسلام، فلا يوجد دين آخر يماثل دين الإسلام في كونه حقًا حتى إن آمنوا بذلك الدين المماثل له كانوا مهتدين، فقيل: فإن آمنوا بكلمة الشك على سبيل الفرض والتقدير، أي: فإن حصَّلوا دينًا آخر مثل دينكم مساويًا له في الصحة والسداد فقد اهتدوا. ونحو هذا قولك للرجل الذي تشير عليه هذا هو الرأي الصواب، فإن كان عندك

---

(1) ينظر: جامع البيان للطبري، ت: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط:١ – ١٤٢٠هـ ٢٠٠٠م. ١١٤/٣.

(2) ينظر: الوسيط في تفسير القرآن المجيد للواحدي، ت/ مجموعة من المحققين، دار الكتب العلمية، بيروت. ط:١–١٤١٥هـ ١٩٩٤م. ٢٢١/١.

(3) ينظر: المحرر الوجيز لابن عطية، ت/ عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط:١–١٤٢٢هـ، ٢١٥/١.

رأي أصوب منه فاعمل به، وقد علمت أن لا أصوب من رأيك، ولكنك تريد تبكيت صاحبك، وتوقيفه على أن ما رأيت لا رأي وراءه [١].

فمطالبتهم باتباع دين مثل هذا الدين حتى يهتدوا من باب التعجيز لهم والتبكيت بهم، فهو كقوله تعالى: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ﴾[البقرة/٢٣] إذ لا مثل لما آمن به المسلمون، ولا دين كدين الإسلام[٢].

وحمل الكلام على التبكيت والتعجيز هو الأولى والأنسب بالسياق –من وجهة نظري– ذلك أنَّهم لما ادَّعوا لأنفسهم الهداية، وزعموا أن لا اهتداء إلا لمن تبع دينهم وذلك بقولهم: ﴿قَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا﴾، جابههم الله ورد على ادعائهم أبلغ رد، حيث أثبت الهداية لمن آمن بالله وجميع كتبه ورسلة دون أن يفرق بين أحد من رسله من لدن آدم إلى محمد – صلى الله عليه وسلم–، وهذا غير متحقق في اليهودية ولا النصرانية، ومن ثم فإنَّ ادِّعاءهم الهداية محض افتراء، وإن أرادوا الهداية حقًا فعليهم أن يبحثوا عن دين مثل هذا الدين، وفي هذا دعوة لإعمال العقول وإزالة الغشاوة عن الأبصار لترى الحق واضحًا لا التباس فيه، وإذا ثبت أن الحق لا يتعدد ثبت أنه ليس أمامهم إلا الإسلام إن أرادو اتباع الحق والهداية.

يقول الألوسي – رحمه الله– " و(إن) لمجرد الفرض والكلام من باب الاستدراج، وإرخاء العنان مع الخصم حيث يراد تبكيته، وهو مما تتراكض فيه خيول المناظرين– فلا بأس بحمل كلام الله تعالى عليه– يعني نحن لا نقول: إننا على الحق وأنتم على الباطل، ولكن إن حصَّلتم شيئًا مساويًا لما

(١) ينظر: الكشاف:١/١٩٥.

(٢) ينظر: أنوار التنزيل وأسرا التأويل للبيضاوي:١/١٠٩.

نحن عليه مما يجب الإيمان أو التدين به فقد اهتديتم ومقصودنا هدايتكم كيفما كانت، والخصم إذا نظر بعين الإنصاف في هذا الكلام وتفكر فيه علم أن الحق ما عليه المسلمون لا غير، إذ لا مثل لما آمنوا به، وهو ذاته تعالى وكتبه المنزلة على أنبيائه ولا دين كدينهم، فـ " آمَنُوا " متعدية بالباء و" مثل" على ظاهرها..." [1].

وإخراج الكلام المتيقن في صورة المشكوك فيه استدراجًا للخصم وتنزلا معه في الخطاب؛ لقصد تبكيته وإلزامه الحجة، وسيلةٌ من وسائل الإقناع، وطريقةٌ من طرق التعبير، يُلجأ إليها في مقام الحجاج، وتمكِّنُ صاحبها من الوصول إلى المراد بأوجز عبارةٍ، وأقصر طريقٍ، ذلك أن المتكلم مع ثقته فيما بين يديه، وتيقنه من صدق ما هو مؤمنٌ به، إلا أنه يعرضه في معرض المشكوك فيه، ويتنزل مع الخصم فيما يدَّعيه؛ ليجبره على إعمال عقله، ومن ثم يستدرجه إلى الإذعان والتسليم. فالقرآن يتيح الفرصة كاملةً للخصم، ويعرض وجهة نظره بأمانة، ويحكي أقواله ومزاعمه بصدقٍ دون اجتزاءٍ أو تغييرٍ، ثم يأتي على تلك المزاعم بما يفنِّدها، وذلك بعرض البراهين والأدلة التي إذا ما تفكر فيها الخصم لم يسعه إلا الإقرار والتسليم، ثم يترك الخصم لنفسه، ويضعه أمام مسؤولياته ليقرر ما يشاء، فإن كان باحثًا عن الحق طالبًا له فهاهو الحق بين يديه مدعومًا بالدليل، وإلا فيكفى أن الحق قد تبين، وأن المعاند قد كُشِفَ زيغُه وزهق باطله، وظهر للجميع

(1) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للألوسي، ت/ علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط:١، ١٤١٥هـ،١/٣٩٤.

عنـادُه وتمسُّـكُه بالباطـل، فـلا يغتـرُّ النـاس بعـد بباطلـه، ولا ينخـدعون بأكاذيبه[1].

وهذه الآية معترضة بين قوله: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ﴾ وقَوْلِهِ: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ﴾ وهي ردٌ لما زعموه من كونهم على الهدى بقولهم: ﴿كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا﴾ فدل مفهوم الشرط على أنهم ليسوا على هدى ما داموا غير مؤمنين بالإسلام. والإتيان بإن المفيدة للشك في قوله: ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ مع أن توليهم هو المتوقع؛ لمجرد المشاكلة لقوله: ﴿فَإِنْ آمَنُوا﴾ فجاء الكلام على نسق واحد تحقيقًا لهذه المشاكلة [2].

وقوله: ﴿فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ﴾ الشقاق إما من المشقة أو من الشَقِّ لأن المتخالفين يكون كل منهما في شق غير شق صاحبه، ولا يكاد يقال في العداوة على وجه الحق شقاق لأن الشقاق في مخالفة عظيمة توقع صاحبها في عداوة الله وغضبه وهذا وعيد لهم، وأكده بإنَّما المفيدة للحصر والقصر، فقصرهم بذلك على الشقاق، وفيه دلالة على أن من أعرض عن هذا الهدى لا يرجى منه الخير ولا سبيل إلى وصوله للحق، واستعمال (في) للإشارة إلى أن الشقاق قد استولى عليهم بحيث قد صار ظرفًا لهم وهو محيط بهم إحاطة البيت بمن فيه، وهذه مبالغة في الشقاق الحاصل لهم بالتولي، وقوله: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ﴾ عطف بالفاء إشعارًا بتعقُّب الكفاية عقيب شقاقهم،

---

(1) ينظر: خروج الأمر المتيقن مخرج الشك والاحتمال لطائفه وأسراره في القرآن الكريم، د. علي عبدالكريم، بحث بحولية كلية اللغة العربية بنين بجرجا، العدد الثالث والعشرون ١٤٤١هـ ٢٠١٩م، ٨٧٤٨/٩.

(2) ينظر: التحرير والتنوير: ٧٤١/١، ٧٤٠.

والمكفي ليست ذواتهم بل شرهم، ففي الكلام إيجاز بحذف المضاف والتقدير: فسيكفيك شقاقهم، والمكفيُّ به محذوف، والتقدير فسيكفيك شقاقهم بمن يهديه من المؤمنين، أو بتفريق كلمة المُشَاقِّينَ، أو بإهلاكهم [1].

ونأتي إلى الفاصلة التي ختمت بها الآية الكريمة، حيث آثر النظم القرآني التعبير باسمي الله السميع والعليم، فقال سبحانه: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾، ومجيء الفاصلة على هذا النحو واشتمالها على هذين الاسمين من أسماء الله؛ إنما لتتناسب مع السياق بما اشتمل عليه من معان وألفاظ متعلقة بهذين الاسمين دون غيرهما من أسمائه تعالى، فقد بدأ السياق بالدعوة إلى الإيمان، فقال تعالى: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ﴾ والقول عمل اللسان والإيمان عمل القلب، فجاء التعبير باسم الله السميع للتنبيه على أنه سامع لما تتفوه به ألسنتهم، وجاء التعبير باسمه العليم للتنبيه على أنه مطلع على ما تخفيه قلوبهم، ومن ثم فلا مناص من أن تكون بواطنهم متوافقةً مع ظواهرهم، وإلا فلن يستطيعوا مخادعته، فلن يخفى عليه ما تنطوي عليه قلوبهم من كفرٍ، إن هم أظهروا الإسلام وأبطنوا الكفر.

وفي السياق أيضًا نجد قوله تعالى: ﴿قَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا﴾ وفي هذا ما يشير إلى أنهم لن يهدأ لهم بال، ولن يقر لهم قرار حتى يردوا المسلمين عن دينهم، فإن لم يستطيعوا فسيسعون في إهلاكهم، ولذا جاء التعبير بقوله: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ﴾، وفي هذا طمأنة للنبي-صلى الله عليه وسلم- ومن معه ليمضي في دعوته فإن الله كافيه، وطالما هناك حماية

(1) ينظر: البحر المحيط بتصرف: ١/٦٥٣، ٦٥٤.

وكفاية من الله لنبيه فإن هذا بدوره يعني أنهم يضمرون له الشر ويكيدون له ويسعون في هلاكه، والكفاية من الله لرسوله تقتضي أن يكون سميعًا لكل ما يقولون عليمًا بما يضمرون؛ إذ لا يمكن أن تتحقق الكفاية والحماية إلا بذلك، ومن ثم كان التعبير بهذين الاسمين في موقعه.

ومن هنا ندرك أن قوله: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ تضمن الوعد والوعيد في آن واحد، فهو وعيد لهم، والمعنى: أنه يدرك ما يضمرون ويقولون وهو قادر على كفاية نبيه ومن معه من شرهم وكيدهم. ووعد لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- بمعنى: يسمع دعاءك ويعلم نيتك، وهو يستجيب لك ويوصلك إلى مرادك [1].

وعليه فهذا التذييل يدخل تحت مظلته كل المعاني التي تضمنها السياق، فكأنه أجمل بهذا التذييل ما فصله قبل، فجاء التعبير بهذين الاسمين مشعرًا بالرهبة ومطمئنًا في وقت واحد، وهذا إن دل فإنما يدل على قوة اللفظ وصدقه في الدلالة على المعنى، كما يدل كذلك على تمكنه في موضعه، ومن ثم كان اللفظ مظهرًا للمعنى ومعبرًا عن المراد.

وهذا ما يعرف بخصوصية اللفظ، حيث يدل دلالة تامة على المعنى، ويقع في موقعة المناسب، بحيث يكون مبناه موافقًا لمعناه، وآية ذلك أنك لا تستطيع أن تبدله أو تنقله، فالمفردة إذا تمكنت في موضعها دلت على المعنى كله، فإذا حشرت حشرا أو قسرت قسرا دلت على بعض المعنى أو ألجأت إليه، وفي اختيار الكلمة الخاصة بالمعنى إبداع، والكلمة في الجملة

(1) ينظر: مفاتيح الغيب: ٤/٧٤.

كالقطعة في الآلة إذا وضعت في موضعها على الصورة اللازمة، والنظام المطلوب تحركت الآلة وإلا ظلت جامدة [1].

واقتران السميع بالعليم من تمام الكمال، فالقول يصدر عن ذات، فالقول شيء، ودافع القول، ومبعثه ونية صاحبه شيء آخر، فالله تعالى يسمع، ولا يكتفي أن يسمع بل يعلم دوافع الأقوال، فكم من قول حق أريد به باطل، وكم من قول حسن نطق به منافق، وأبطن في قلبه النفاق، فالمولى حين يخبرنا بأنه سميع، إنما لنعلم أنه يحاسبنا على أقوالنا، فلا نقول إلا ما يرضيه، وحين يقرن بالسميع العليم، كأنه يحذرنا من أن لا تصدق نوايانا فيما نقول.

يقول الإمام البقاعي عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [المائدة/٧٦] "وإنما قرن بالسميع العليم، دون البصير لإرادة التهديد لمن عبد غيره، لأن العبادة قول أو فعل، ومن الفعل ما محله القلب وهو الاعتقاد، ولا يدرك بالبصر بل بالعلم" [2].

وهكذا فالقرآن بالغ الدقة في اختيار الألفاظ ولما بين الألفاظ من فروق دقيقة في دلالتها، يستخدم كلا حيث يؤدى معناه في دقة فائقة، تكاد بها تؤمن بأن هذا المكان كأنما خلقت له تلك الكلمة بعينها، وأن كلمة أخرى لا

(١) ينظر: دفاع عن البلاغة للزيات، عالم الكتب، القاهرة، ط:٢ ١٩٦٧م، ص٩٦.

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ٢٥٧/٦.

تستطيع توفية المعنى الذى وفت به أختها، فكل لفظة وضعت لتؤدي نصيبها من المعنى أقوى أداء [١].

وأما الموضع الثاني الذي عُبِّر فيه باسم الله العليم في مقام تثبيت العقيدة فهو قوله تعالى: ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة/٢٥٦] والمناسبة بين هذه الآية وما سبقها واضحة، ذلك أن آية الكرسي اشتملت على دلائل وحدانيته تعالى وعظمته، وهذا من شأنه أن يسوق ذوي العقول إلى قبول هذا الدين دون جبر أو إكراه [٢].

واختلفوا في سبب نزول هذه الآية على أقوال عدة مسرودة في كتب التفسير [٣].

واللام في قوله:(الدين) يجوز أن تكون للعهد، أي الإسلام، أو هي بدل من الإضافة والمراد: في دين الله، وقوله:﴿ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾ أي تميز الحق من الباطل والإيمان من الكفر بكثرة الحجج والآيات الدالة[٤].

و(لا) نافية وعليه فالجملة خبرية مقصود بها نفي وقوع الإكراه، إذ الإكراه في الحقيقة إلزام الغير فعلًا لا يرى فيه خيرًا يحمله عليه، ولكن قد

---

(١) ينظر: الإعجاز البياني بين النظرية والتطبيق، د. حفني شرف، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ط١، ١٩٧٠م ص٢٢٢.

(٢) ينظر: التحرير والتنوير:٣/٢٥.

(٣) ينظر: زاد المسير في علم التفسير لأبي فرج الجوزي، ت: عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط:١، ١٤٢٢هـ، ١/٢٣٠،٢٣١.

(٤) ينظر: مفاتيح الغيب:٧/١٦،١٥.

تميز الإيمان من الكفر بالآيات الواضحة، ودلت الدلائل على أن الإيمان رشد يوصل إلى السعادة الأبدية والكفر غي يؤدي إلى الشقاوة السرمدية، والعاقل متى تبين له ذلك بادرت نفسه إلى الإيمان طلباً للفوز بالسعادة والنجاة، ولم يحتج إلى الإكراه والإلجاء. وقيل: هي إخبار في معنى النهي، أي: لا تكرهوا في الدين[1].

وقوله: ﴿قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ تعليل لقوله: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ وصدر بـ (قد) المفيدة للتحقيق؛ لزيادة تقرير مضمونه، إذ قد تبين بما ذُكر من نعوته في الآية السابقة على هذه الآية –وهي آية الكرسي– والتي يمتنع توهم اشتراك غيره في شيء منها– تبين بذلك الإيمان الموصل للرشد والسعادة، والكفر الموصل للغي والضلال، ووضوح الرشد واستبانته تحمل على الدخول في الدين طوعًا من غير إكراه، ولما كانت هذه الجملة في موقع التعليل لما قبلها فإنها فصلت عنها لما بينهما من شبه كمال اتصال، حيث أثارت الأولى سؤالًا فأجابت الثانية عنه [2].

وقابل سبحانه بين الكفر بالطاغوت والإيمان بالله، في قوله: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ﴾ فلم يقل سبحانه مباشرة: فمن يؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى، مع أن الإيمان بالله يستلزم الكفر بما دونه، وإنما آثار تلك المقابلة؛ لينبه على أن التوبة لا تصح والإيمان لا يقبل إلا بعد الانسلاخ بالكلية من كل مظاهر الكفر والشرك، ثم في النَّص على ذلك

(1) ينظر: أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي:١/١٥٤.

(2) ينظر: البحر المحيط لأبي حيان:٢/٦١٦ وينظر: إرشاد العقل السليم لأبي السعود:١/١٤٩.

مزيد تأكيد على تركه، ولم يكتف كذلك بقوله: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ﴾ لأنَّ الكفر بالطاغوت لا يستلزم بالضرورة الإيمان بالله، إذ قد يرفض عبادتها ولا يؤمن بالله[1].

وهذا يعد من قِيم وجماليات الطباق والمقابلة؛ فالطباق والمقابلة لديهما القدرة على أن يجمعا شَتات المتنافرات في موضع واحدٍ فيحدثا في الذهن ضربًا من الانتقال السريع بين الضد وضده، والشيء ومقابله. وحين يتحقق للإدراك هذه الإحاطة بالمتباعدات في الواقع، على هذا النحو السريع، وعلى هذه الصورة التي يتجاور فيها الماء والنار، والأبيض والأسود، يأنس شيئًا من البهجة والرضا. ويبدو أن المتباعدات في المعنى أقدر من غيرها على تنشيط الفعالية الإدراكية. كما يتأتى شيء من هذه الجمالية من التعجب والإدهاش اللذين يحدثان للذهن عند إدراك الأفعال المتضادة المنسوبة إلى فاعل واحد [2].

وهذا يؤكّد تلك القاعدة الثابتة بلاغيًا، وهي أنَّ الطباق من الأمور الفطرية التي لها علاقةٌ وثيقةٌ ببلاغة الكلام، إذ الضد أقرب خطورًا بالبال عند ذكر ضده، فالطباق ينقل غرض المتحدث ويبرزه في صورةٍ قويةٍ مؤثرةٍ[3].

---

(1) ينظر: البحر المحيط:٦١٧/٢.

(2) المفصل في علوم البلاغة العربية د. عيسى علي العاكوب، منشورات جامعة حلب١٤٢١هـ. ٢٠٠٠م، ص٥٦١.

(3) الصبغ البديعي، د. أحمد إبراهيم موسى، دار: الكاتب العربي للطباعة والنشر ١٣٨٨هـ ١٩٦٩م، ص٤٧١.

أضف إلى ذلك أن الطباق وكذا المقابلة لديهما القدرة على استقصاء الأحوال وذلك بالنص عليها– كما في الآية الكريمة– فتكون أوقع في النفس وأثبت في الذهن، فالمقابلة هنا إلى جانب ما أضفته على الكلام من تناغم ناتج عن الجمع بين الشيء وضده، فإنها كذلك شدت من عضد المعنى وأكدته، كما أفادت الشمول والاستقصاء.

و﴿اسْتَمْسَكَ﴾ في قوله تعالى:﴿فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ بمعنى تَمَسَّكَ، فالسين والتاء للتأكيد وليست للطلب كما في قوله:﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ﴾ [الزخرف: ٤٣] إذ لا معنى لطلب التمسك بالعروة الوثقى بعد الإيمان، بل الإيمان التمسك نفسه. وهذا التعبير من قبيل التشبيه التمثيلي حيث شبهت هيئة المؤمن في ثباته على الإيمان دون أن تتخطفه الأهواء أو تثنيه عن دينه لما ظهر عنده من براهين ميزت الحق عن الباطل والرشد من الغي بحيث لا يشتبهان– شبهت تلك الهيئة بهيئة من أمسك بعروة وثق من حبل وهو راكب على صعب أو في سفينة في هول البحر، وهي هيئة معقولة شبهت بهيئة محسوسة، فمن مقاصد التشبيه هو إبراز الغامض في صورة الجلي الواضح، وإبراز المعقول في صورة المحسوس ليتمكن من الذهن ويستقر في النفس.(١)

وعبر عن المستقبل بلفظ الماضي في قوله:﴿فَقَدِ اسْتَمْسَكَ﴾ وقرنه بقد الدالة على التحقيق في الماضي وإن كان مستقبلًا في المعنى لأنه جواب

(١) ينظر: الكشاف:١/٣٠٤

الشرط؛ إشعارًا بأنه مما وقع وثبت وذلك للمبالغة في ترتيب الجزاء على الشرط ، وأنه كائن لا محالة [١].

والتعبير بقوله: ﴿بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ من قبيل الاستعارة حيث حذف المشبه واكتفي بذكر المشبه به على سبيل الاستعارة التصريحية، وهذا من باب استعارة المحسوس للمعقول لأن من أراد إمساك شيء يتعلق بعروته، فكذا هنا من أراد إمساك هذا الدين تعلق بالدلائل الدالة علية، ولما كانت دلائل الإسلام أقوى الدلائل وأوضحها وصفها بأنها العروة الوثقى. وقوله: ﴿اسْتَمْسَكَ﴾ وكذا قوله: ﴿لَا انْفِصَامَ لَهَا﴾ ترشيح للاستعارة فهو من ملائمات المشبه به[٢].

واختلفت أقوالهم في تحديد المشبه (المستعار له)، فقال بعضهم: العروة: الإيمان. وقال بعضهم: الإسلام. وقال بعضهم: العروة: لا إله إلا الله [٣].

ثم جاء التذييل بقوله: ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ وما قيل في الموضع السابق يقال في هذا الموضع، فإذا تأملنا لوجدنا أن التعبير باسم الله العليم جاء متناغمًا مع السياق، فالله تعالى يريد قلوبًا مفعمة بحبه مقبلة عليه، قلوبًا استقر فيها الإيمان، ورضيت بدين الله الذي هو الإسلام، فأصحاب هذه القلوب لم يعتنقوا هذا الدين وهم كارهون له أو عليه مكرهون، ولذا نهى الله عن الإكراه في الدين، وجاء النهي بلفظ الخبر ليكون المسلمون أسرع إلى الامتثال والاستجابة لما نهوا عنه، ومن ثم فإن إكراه غير المسلم على

---

(١) ينظر: البحر المحيط:٦١٧/٢.

(٢) ينظر: مفاتيح الغيب:١٦/٧ بتصرف.

(٣) ينظر: المحرر الوجيز لابن عطية:٣٤٣/١.

الإسلام غير جائزٍ على الإطلاق، وما الفائدة في أن يظهر المرء الإسلام ويبطن الكفر، إن مثل هذا ضرره على الإسلام وأهله أكثر نفعه، وشره أكثر من خيره، ولم الإكراه والسبيل واضح والحق معلوم؟!، فمن شاء أن يتبعه فقد رشد وسعد، ومن أعرض عنه فقد ضل وشقي، وما على المرء إلا أن ينظر ويتفكر ثم له مطلق الحرية بعد ذلك في أن يختار أي طريق يريد، لكنه إن اختار دين الله فأقر لله بالألوهية ولمحمد –صلى الله عليه وسلم– وسائر الرسل بالرسالة، فينبغي أن يكون قلبه في ذلك موافقًا لما نطق به لسانه، ومنعقدًا عليه وموقنًا به، فيكون بذلك مؤمنًا صادق الإيمان، يستحق بهذا الإيمان رضا الله ومثوبته، وإلا فإن خالف القلب اللسان، بأن أقر بلسانه دون أن ينعقد قلبه على ما أقر به لسانه فليعلم أن أمره لن يخفى على الله، فالله تعالى سميع، سمع قوله حين أقر بلسانه، وهو تعالى عليم لا يخفى عليه صحة إيمانه من فساده، وفي هذا تهديد للمنافقين الذين يظهرون الإسلام ويبطنون الكفر.

يقول ابن عطية: "ولما كان الكفر بالطاغوت والإيمان بالله مما ينطق به اللسان ويعتقده القلب حسن في الصفات سَمِيعٌ من أجل النطق وعَلِيمٌ من أجل المعتقد" [1].

ويقول أبو حيان:" أتى بهذين الوصفين لأن الكفر بالطاغوت والإيمان بالله مما ينطق به اللسان ويعتقده الجنان، فناسب هذا ذكر هذين الوصفين"[2].

(1) المحرر الوجيز لابن عطية:١/٣٤٤.

(2) البحر المحيط:٢/٦١٨.

وعليه فالصلة موجودة والترابط قائم بين السياق والتعبير باسم الله العليم، وهذا الترابط والانسجام من أهم السمات البارزة في الألفاظ القرآنية وقد تحدث الرافعي عن هذا فقال: " أما ألفاظ الكتاب الكريم، فهي كيفما أدرتها، وكيفما تأملتها، وأين اعترضتها من مصادرها أو مواردها، ومن أي جهة وافقتها، فإنك لا تصيب لها ما دون اللذة الحاضرة، والحلاوة البادية، والانسجام العذب ؛ وتراها تتساير إلى غاية واحدة، وتسنح في معرض واحد، ولا يمنعها اختلاف حروفها وتباين معانيها وتعدد مواقعها من أن تكون جوهرًا واحدًا في الطبع والصقل، وفي الماء والرونق؛ كأنما تتلامح بروح حية ما هو إلا أن تتصل بها حتى تمتزج بروحك وتخالِطَ إحساسك فلن تكون معها إلا على حالة واحدة" [1].

(1) تاريخ آداب العرب للرافعي، دار الكتاب العربي:١٥٩/٢.

المبحث الثالث

التعبير باسم الله العليم في مقام الحديث عن العبادات والشعائر

أما التعبير باسم الله العليم في مقام الحث على إقامة العبادات والشعائر فقد ورد في ثلاثة مواضع من سورة البقرة، أحدها: قوله سبحانه: ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [سورة البقرة الآية: ١٢٧]

و(إذ) للمضي فهي ظرف زمان لما مضى، وتخلص المضارع للماضي، وعليه فقوله: (يرفع) في معنى رفع، وآثر النظم التعبير بالمضارع مع أن القصة ماضية؛ استحضارًا لهذا الأمر؛ ليقتدي الناس به في إتيان الطاعات الشاقة مع الابتهال في قبولها، وليعلموا عظمة البيت فيعظموه [١].

والقواعد جمع قاعدة، ورفعها البناء عليها، فإنه ينقلها عن هيئة الانخفاض إلى هيئة الارتفاع، وقيل المراد رفع مكانته وإظهار شرفه بتعظيمه، ودعاء الناس إلى حجه [٢].

ولا مانع من إرادة المعنيين معًا، لاسيما وأنَّ إبراهيم –عليه السلام– قد قام برفع القواعد، ثم أذَّن في الناس لحج البيت وعمارته وتعظيمه، لكن الأول هو الأظهر والسياق يعضده؛ إذ رفع القواعد يقتضي أن تكون القواعد موجودة بالفعل، ثم قام إبراهيم برفعها والبناء عليها، فذلك فعل مستقل، وأما

(١) ينظر: روح المعاني للألوسي:1/٣٨١.

(٢) ينظر: أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي:1/١٠٦.

الدعوة إلى تعظيم البيت وعمارته والحج إليه ففعل آخر مستقل، فقد استجاب إبراهيم للأمر الأول برفع القواعد وتطهير البيت، ثم جاءه بعد ذلك الأمر بالدعوة إلى تعظيم البيت وحجه، وهذا ما بينته آيات سورة الحج حيث يقول تعالى: ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (٢٦) وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾ [الحج/٢٦،٢٧] فقد أظهرت الآيات أن الفعلين كل منهما مستقل عن الآخر.

وآثر النظم القرآني التعبير بقوله تعالى: ﴿ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ ﴾ على الإضافة بأن يقول: قواعد البيت؛ لما في إبهام القواعد وتبيينها بعد الإبهام ما ليس في إضافتها، ففي الإيضاح بعد الإبهام تفخيم وتعظيم لشأن المبين وهي القواعد[1].

وفيه كذلك تعظيم لشأن إبراهيم إذا المراد استثارة ذهن المخاطب للوقوف على المقصود من تلك القواعد، فعندما يعلم أنها ليست أية قواعد، وإنما هي قواعد البيت الحرام، يدرك قيمة التكليف وأهميته، ويدرك كذلك قيمة ومكانة من كلف بهذا العمل، إذ العمل العظيم لا ينهض به إلا عظماء، وأي عمل أعظم من رفع قواعد البيت.

أضف إلى ذلك أن التعبير بـ" من " والإتيان بالألف واللام في "القواعد" فيه تنبيه على أن القواعد موجودة، ومكان البيت ظاهرٌ، وأن مهمة إبراهيم اقتصرت على رفع قواعد البيت وليس بناء البيت، حتى لا يسري إلى الأوهام أن إبراهيم هو من حدد المكان وقام بالبناء.

([1]) ينظر: الكشاف:١٨٨/1.

﴿وَإِسْمَاعِيلُ﴾ عطف على إبراهيمَ وأخره عن المفعول؛ للإيذان بأن الأصلَ في الرفع هو إبراهيم، وإسماعيل تبعٌ له، وفيه إشارة إلى التفاوت بين عمل إبراهيم وعمل إسماعيل، وهذا من خصوصيات العربية في العطف، ذلك أنك إذا أردت أن تدل على التفاوت بين الفاعلين في صدور الفعل تجعل عطف أحدهما بعد انتهاء ما يتعلق بالفاعل الأول، وإذا أردت أن تجعل المعطوف والمعطوف عليه سواءً في صدور الفعل تجعل المعطوف مواليًا للمعطوف عليه [١].

وتلك سمة بارزة للجملة القرآنية حيث يبرز فيها المعنى ظاهرًا فيه المهم والأهم، فليس تقديم كلمة على أخرى صناعة لفظية فحسب، ولكن المعنى هو الذى جعل ترتيب الآية ضرورة لا غنى عنه، وإلا اختل وانهار. ففي تلك الآية الكريمة نجد إسماعيل كأبيه يرفع القواعد من البيت، ولكن تأخره في الذكر، يوحى بأن دوره في رفع القواعد دور ثانوي، أما الدور الأساسي فقد قام به إبراهيم، فنزلت الآية، وكأنما كانت ستترك ذكر إسماعيل لثانوية دوره، ثم ذكرته بعد أن انتهت من تكونها [٢].

وفي الكلام إيجاز بحذف الفعل والتقدير: يقولان ربنا تقبل منا، ومثل هذا الحذف كثير في القرآن [٣].

وفي قراءة أُبيّ بن كعب وعبد الله بن مسعود: يقولان ربنا، بثبوت يقولان[٤].

---

(١) ينظر: إرشاد العقل السليم لأبي السعود:١/١٦٠، وينظر: التحرير والتنوير:١/٧١٨.

(٢) ينظر: من بلاغة القرآن لأحمد بدوي، دار نهضه مصر ٢٠٠٥م. ص٨٥.

(٣) ينظر: معاني القرآن للزجاج، ت/ عبد الجليل عبده شلبي، عالم الكتب، بيروت، ط:١- ١٤٠٨هـ ١٩٨٨م، ١/٢٠٨.

(٤) ينظر: المحرر الوجيز لابن عطية:١/٢١١. وينظر: معجم القراءات، د.عبد اللطيف الخطيب، دار: سعد الدين،١/١٩٣.

ومن القراء من وقف على البيت، ورفع إسماعيل بالابتداء، وجعل البناء من إبراهيم، والدعاء من إسماعيل، والوجه هو الأول لثبوت القراءة به، ولقوله: ﴿وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ﴾ ففي هذه الآية دلالة على أن العهد كان لهما معًا لا لأحدهما دون الآخر[1].

وقوله: ﴿تَقَبَّلْ﴾ عبَّر بالقبول وأراد الثواب والرضا إذ الثواب لازم للقبول، فعبر عن أحد المتلازمين باسم الآخر، وفرَّق العارفون بين القبول والتقبل، فالتقبل عبارة عن أن يتكلف الإنسان في قبوله- ولله المثل الأعلى- وذلك إنما يكون إذا كان العمل ناقصًا لا يستحق أن يقبل، وعليه فالتعبير بقوله: ﴿تَقَبَّلْ﴾ اعترافٌ منهما بالقصور وإظهارٌ للعجز والانكسار، إلى جانب ذلك ففيه إشارة إلى أنَّ مقصودهما لم يكن الثوب في حد ذاته وإنَّما مقصودهما أن يلقى عملهما القبول والرضا من الله تعالى[2].

وهذا هو شأن أنبياء الله -صلوات الله عليهم- يعملون الأعمال الصالحة ثم يجأرون إلى الله ليس طلبًا للثواب، بل طلبا للمغفرة عما عساهم قد وقعوا فيه من تقصير أو تفريط غير مقصود، بل ويعدون ذلك ذنبًا يتوبون إلى الله منه ويستغفرونه عليه، ويسألونه قبول تلك الأعمال والعفو عما اعتراها من نقص.

وهذا ما وصفه علماؤنا بأنه من باب حسنات الأبرار سيئات المقربين وإن كانت هذه العبارة ليست محفوظةً عمن قوله حجة، وإنما لها معنى

---

(1) ينظر: غرائب التفسير وعجائب التأويل للكرماني، دار القبلة للثقافة الإسلامية، جدة. مؤسسة علوم القرآن، بيروت،١/١٧٦.

(2) ينظر: مفاتيح الغيب:٤/٥١.

صحيح، وقد تحمل على معنى فاسد. أما معناها الصحيح؛ فوجهان: أحدهما: أن الأبرار يقتصرون على أداء الواجبات وترك المحرمات، وهذا الاقتصار سيئة في طريق المقربين، ومعنى كونه سيئة أن يخرج صاحبه عن مقام المقربين؛ فيحرم درجاتهم، وذلك مما يسوء من يريد أن يكون من المقربين؛ فكل من أحب شيئًا وطلبه إذا فاته محبوبه ومطلوبه ساءه ذلك؛ فالمقربون يتوبون من الاقتصار على الواجبات، لا يتوبون من نفس الحسنات التي يعمل مثلها الأبرار، بل يتوبون من الاقتصار عليها، وفرق بين التوبة من فعل الحسن وبين التوبة من ترك الأحسن والاقتصار على الحسن. الثاني: أن العبد قد يؤمر بفعل يكون حسنًا منه؛ إما واجبًا، وإما مستحبًّا لأن ذلك مبلغ علمه وقدرته، ومن يكون أعلم منه وأقدر لا يؤمر بذلك، بل يؤمر بما هو أعلى منه، فلو فعل هذا ما فعله الأول كان ذلك سيئة. وأما المعنى الفاسد؛ فأن يظن الظان أن الحسنات التي أمر الله بها أمرًا عاما يدخل فيه الأبرار ويكون سيئات للمقربين، مثل من يظن أن الصلوات الخمس ومحبة الله ورسوله والتوكل على الله وإخلاص الدين لله ونحو ذلك هي سيئات في حق المقربين؛ فهذا قول فاسد غلا فيه قوم من الزنادقة المنافقين المنتسبين إلى العلماء والعباد؛ فزعموا أنهم يصلون إلى مقام المقربين الذي لا يؤمرون فيه بما يؤمر به عموم المؤمنين من الواجبات، ولا يحرم عليهم ما يحرم على عموم المؤمنين من المحرمات؛ كالزنا، والخمر، والميسر، وكذلك زعم قوم في أحوال القلوب التي يؤمر بها جميع المؤمنين أن المقربين لا تكون هذه حسنات في حقهم، وكلا هذين من أخبث الأقوال وأفسدها[1].

([1]) ينظر: جامع الرسائل لابن تيمية، ت/ د. محمد رشاد سالم، دار العطاء، الرياض، ط:١- ١٤٢٢هـ، ٢٠٠١م،١/٢٥١، ٢٥٥

ثم ختم سبحانه الآية الكريمة بقوله: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ وهذا الختام مناسب تمام المناسبة للسياق؛ إذا السياق من بدايته يؤكد على إخلاص خليل الله إبراهيم –عليه السلام– في القيام لا بما كلفه الله به بل بما ابتلاه به كما عبر القرآن، فقد امتحنه الله وابتلاه بابتلاءات لا ينهض بها غيره، فما كان منه إلا التسليم والرضا ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة/١٣١] ، لذا اصطفاه الله وجعله إمامًا للناس واتخذه خليلًا، وكان مما كلفه الله به أن يطهر بيته ويرفع قواعده، فقام مع ابنه على هذا العمل خير قيام وأحسنه، ثم توجه مع ابنه إلى ربه سائلين إياه القبول، وختما دعاءهما بالثناء عليه وإثبات صفتي السمع والعلم له، فهو السميع بدعائهما والعالم بأحوالهما، فاسمه السميع لأنه السامع والمجيب لدعاء إبراهيم مع كل ابتلاء وتكليف، فهو كما وصفه ربه أواه حليم، كثير الرجوع إلى الله والتضرع له، يلقى في النار من قبل قومه، ولم يرزق بالولد إلا بعد أن كبرت سنه، ثم أُمر بعد بتركه رضيعًا مع أمه في صحراء مقحلة، ثم أُمر بعد بذبحه، ثم أُمر برفع قواعد البيت الحرام، وفي كل ابتلاء من تلك الابتلاءات وإن لم يدع ربه باللسان لرفع هذا الابتلاء فما كان ليطلب شيئًا على غير مراد الله، لكنَّ الله سامع لأنَّات هذا القلب الذي ينبض بحبه والمقيم على شكره، والمسلِّم لأمره أيًا كان هذا الأمر وأيًا كانت مشقة التكليف، واسمه العليم لأنه عالم بما يحويه هذا القلب من إخلاص، ومطلع على سريرته النقية الصافية، فقلبه ليس فيه إلا الله ولا يتعلق بأحد سواه، فلم يؤثر حبه لنفسه أو ولده أو زوجه على حبه لربه، ولذا لما علم الله ذلك منه اتخذه خليلًا وجعله للناس إمامًا، ومدحه بأنه أمة، فقال: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾[النحل/١٢٠] فقد جمع من

خصال الخير ما لا يمكن لشخصٍ أو جماعةٍ جمعه بل تحتاج تلك الخصال إلى أمة لتحيط بها.

يقول أبو حيان: " وهاتان الصفتان مناسبتان هنا غاية التناسب، إذ صدر منهما عمل وتضرع سؤال، فهو السميع لضراعتهما وسؤالهما التقبل، وهو العليم بنياتهما في إخلاص عملهما. وتقدمت صفة السمع وإن كان سؤال التقبل متأخرًا عن العمل للمجاورة، نحو قوله: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ﴾ [آل عمران/١٠٧] وتأخرت صفة العليم لكونها فاصلة ولعمومها، إذ يشمل علم المسموعات وغير المسموعات" [١].

ويفاد مما قاله أبو حيان أن الفاصلة لم تراع السياق وحده، بل ضمت إلى ذلك مراعاة التناغم الصوتي وجمال الإيقاع، فتقدمت صفة السمع وإن كان سؤال التقبل متأخرًا عن العمل للمجاورة، وتأخرت صفة العليم لكونها فاصلة.

ومن هنا يتضح لنا أن الفاصلة في القرآن يحتمها السياق وتقتضيها الحكمة؛ ولا ضير أن يقترن مع هذا الغرض المعنوي ما يتصل بجمال اللفظ وبديع الإيقاع، وإن كان بعضها يمكن إدراكه بأدنى تأمل وبعضها يحتاج إلي فضل عناية وتدبر [٢].

والتعبير بقوله: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ يفيد الحصر، والغرض منه المبالغة في إثبات كماله–تعالى– في هاتين الصفتين، فكأنَّه هو المختص

---

(١) البحر المحيط:١/٦٢٠.

(٢) ينظر: نظرات من الإعجاز البياني في القرآن الكريم نظريًا وتطبيقيًا، د/ سامي محمد حريز، دار: الشروق، الأردن، ط:١ ٢٠٠٦م. ص٤٠، ٤١

بهما دون غيره. ويجوز أن يكون القصر حقيقيًا باعتبار متعلق خاص، أي السميع العليم لدعائنا لا يعلمه غيرك، وهذا قصر حقيقي مقيد وهو نوع مغاير للقصر الإضافيّ لم ينبّه عليه علماء المعاني [١].

ومن المواضع التي عُبر فيها باسم الله العليم في مقام الحث على العبادات قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة الآية:١١٥]

وذكروا في سبب نزول هذه الآية روايات متعددة منها ما ذكره الإمام مقاتل في تفسيره من أن أناسًا من الْمُؤْمِنِين كانوا فِي سفرٍ فحضرت الصَّلاة فِي يوم غيمٍ فتحيروا، فمنهم من صلى قِبَل المشرق، ومنهم من صلى قِبَل المغرب، وذلك قَبل أن تحول القبلة إلى الكعبة، فَلَمَّا طلعت الشمس عرفوا أنهم قَدْ صلوا لغير القبلة، فقدموا المدينة فأخبروا النَّبِيّ–صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– بِذَلِك فأنزل الله–عَزَّ وَجَلّ– هذه الآية الكريمة[٢].

وهي من الآيات التي لا يفهم مرادها إلا بالوقوف على سبب نزولها؛ إذا لو أخذنا مدلول اللفظ دون الرجوع إلى سبب النزول لاقتضى أن المصلي لا يجب عليه استقبال القبلة سفرًا ولا حضرًا وهو خلاف المراد [٣].

---

(١) ينظر: مفاتيح الغيب:٥٢/٤ وينظر: التحرير والتنوير:٧١٩/١.

(٢) ينظر: تفسير مقاتل، ت: د.عبد الله محمود شحاته، دار إحياء التراث – بيروت، ط:١ –١٤٢٣هـ، ١٣٣/١.

(٣) ينظر: البرهان في علوم القرآن للزركشي، ت: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي، ط:١ ١٣٧٦هـ ١٩٥٧م، ٢٩/١.

وخص سبحانه المشرق والمغرب- مع أنهما وما بينهما من الجهات والمخلوقات له بالإيجاد والاختراع- بالذكر والإضافة إليه؛ تشريفًا لهما وعناية بهما، نحو بيت الله، وناقة الله، ولأن سبب الآية اقتضى ذلك [1].

والوجه في القرآن له أربعة معان: الأول: بمعنى: الذات، ومن ذلك قوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾[القصص/٨٨] أي: إلا هو، إذ لو قصد بالوجه حقيقته على ما يوجبه ظاهر الآية وعلى ما يقوله المشبهة لكان ينبغي أن يفنى جميعه ويبقى وجهه، وليس هذا قولًا لأحد إلا لبيان بن سمعان[2]، وليس هو مما يعتد به لبيان بطلانه ودلالة العقل والإجماع على خلافه. الثاني: أن يأتي الوجه بمعنى: الأول، كما في قوله: ﴿وَجْهَ النَّهَارِ﴾[آل عمران/٧٢] أي: أوله، وإنما قيل ذلك؛ لأن أول ما يلقاه من الشيء وجهه. الثالث: بمعنى الدين أو العمل، كما قال:﴿وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ﴾ [لقمان/٢٢] أي: أخلص دينه أو عمله. الرابع: بمعنى ما يريده الله ويرضاه، كما في هذه الآية ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ أي: الوجه الذي يريده اللَّه، وجاء في التفسير أنه أراد فَثَمَّ القبلة، وعليه فالمراد بالوجه هنا القبلة،

---

(1) ينظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، ت: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية – القاهرة، ط: ٢، ١٣٨٤هـ ١٩٦٤م، ٧٩/٢.

(2) هو بيان بن سمعان التميمي النهدي -لعنه الله- ظهر بالعراق وقال بألوهية علي – رضي الله عنه- وأن فيه جزءًا من الألوهية متحدًا بناسوته، ثم تحول من بعده في ابنه محمد ابن الحنفية، ثم في ولده أبي هاشم، ثم من بعده في بيان؛ يعني نفسه، وقد كتب كتاب إلى أبي جعفر الباقر يدعوه إلى نفسه وأنه نبي، وقتله خالد بن عبد الله القسري أمير العراق نَفْسَهُ. (تاريخ الإسلام وَوَفيات المشاهير وَالأعلام للذهبي، ت/ د. بشار عوّاد معروف، دار الغرب الإسلامي، ط: ١- ٢٠٠٣م، ٢١٤/٣.)

وخص المشرق والمغرب في هذه الآية؛ لأنهما أشهر الجهات، وأراد ما بين المشرق والمغرب وذلك الدنيا كلها، والمراد أن الجهات وما فيها لله فأينما تستقبلوا من الوجوه المأمور باستقبالها فَثَمَّ الوجه الذي تتقربون به إلى الله[1].

وأوَّلوا الوجه في الآية التي معنا على عدة معان: فقيل: ثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ، يعني: ثَمَّ ما قصدتم وجه الله. وقيل: ثَمَّ قبلَةُ الله. وقيل: ثَمَّ وجهُ الله: أي ذاته بمعنى أنه ليس عنهم بغائب، وقيل: ثَمَّ رضا الله. وقيل: ثم ما ابتغيتم به وجه الله. إلى غير ذلك من المعاني التي فيها تنزيه له تعالى عن مشابهة الحوادث والتحيز[2].

ثم ختمت الآية باسمي الله الواسع والعليم، فقال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ واختيار اسم الله الواسع؛ لأنه وسَّع على عباده ولم يضيق عليهم، حيث قبل منهم التوجه إلى أي جهة شاءوا، وذلك عند التباس أمر القبلة عليهم وعدم قدرتهم بعد التحري على تحديد جهتها.

كذلك التعبير باسمه الواسع يتناسب مع ما ذكر في أول الآية من سعة ملكه، فالمشرق والمغرب وما بينهما من خلقه وتحت سلطان.

كذا في التعبير باسمه الواسع والذي من معانيه الغني ما يدل على استغنائه وعدم حاجته إلى طاعة عباده، وعليه فليست العبرة في توجه

---

(1) ينظر: الوجوه والنظائر لأبي هلال العسكري، ت: محمد عثمان، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط:١، ١٤٢٨هـ ٢٠٠٧م. ص٤٩٥، ٤٩٦.

(2) ينظر: تفسير الماتريدي، ت: د. مجدي باسلوم، دار الكتب العلمية، بيروت، ط:١- ١٤٢٦هـ ٢٠٠٥م.١/٥٤٥.

الوجوه والأجساد بل العبرة في توجه القلوب والأفئدة، وليست العبرة كذلك في الجهة التي يتوجهون إليها بل العبرة في أن يُقصد بهذا التوجه رضاه.

ثم جاء التعبير باسمه تعالى العليم لينبه على أن سعة علمه كسعة ملكه، وليؤكد على أنهم حيثما توجهوا وحيثما كانوا فإن الله معهم معيه علم وإحاطة وإدراك، وإذا نحن تأملنا السياق من أول الآية لوجدنا أن اختيار النظم القرآني لهذين الاسمين من أسمائه تعالى لم يكن عبثًا ولم يأت اعتباطًا، وإنما جاء ليكون آخر الكلام مناسبًا لأوله، وأوله دالًا على آخره، ومن ثم تكون الكلمة في موقعها ومؤدية لدورها، ولو أنك حاولت في هذا الموضع التعبير بغير هذين الاسمين من أسمائه تعالى لكان النظم مختلًا، ولكانت العبارة نابية غير مستقرة في موضعها، وهذا أمر يدركه صاحب الذوق ومن له حظ من البلاغة، فهناك مناسبة واضحة وملاءمة ظاهرة بين صدر الآية وعجزها، فقد دل صدرها على أن المشرق والمغرب لله تعالى، وهذا يدل على سعة الملك والإحاطة بكل جوانب الكون، و دل عجزها على سعة وشمول ملكه، وإحاطة علمه، فحيثما ول العبد وجهه فقد ولاه لله، وحيثما اتجه فهو في ملك الله وتحت علمه، فقد وسع ملكه وعلمه كل شيء، ومن هنا كان الترابط بين الألفاظ والتماسك بين الأجزاء، وهذا –كما ترى– أمرٌ ظاهرٌ للعيان لا يحتاج إلى مزيد شرحٍ أو برهانٍ.

وهذا الترابط والتماسك بين أجزاء الجملة المستقلة والجمل المتعددة أحد مقومات البيان ومحور رئيس من محاور البلاغة، وفي هذا المعنى يقول الجاحظ (ت٢٥٥هـ): " أجود الشعر ما كان متلاحم الأجزاء، سهل المخارج، كأنّه قد سُبك سبكاً واحداً، فهو يجري على اللسان كما يجري الدِّهان، أما إذا

كانت الكلمة ليس موقعها إلى جنب أختها مرضيًا كان على اللسان عند إنشاد هذا الشعر مؤنة" [1].

وقد علق ابن رشيق (ت ٤٥٦هـ) على ذلك بقوله:" وإذا كان الكلام على هذا الأسلوب الذي ذكره الجاحظ لذَّ سماعه، وخف محتمله، وقرب فهمه، وعذب النطق به، وحلي في فم سامعه، فإذا كان متنافرًا متباينًا عسر حفظه، وثقل على اللسان النطق به، ومجَّته المسامع فلم يستقر فيها منه شيء" [2].

ومن هنا ندرك ما ينبغي أن تكون عليه الجملة المستقلة والجمل فيما بينها، من ترابط واتساق، بحيث تكون المناسبة قائمة، والصلة قوية بين الكلمات والجمل، حتى لا ينفر منها اللسان أو تمجها الآذان، وخير مثال لهذا الترابط والتلاحم كتاب الله تعالى.

كذا من المواضع التي ورد فيه اسم الله العليم في مقام الحث على إقامة الشعائر وأداء العبادات قوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة/ ١٥٨]

---

(١) البيان والتبيين للجاحظ، ت/ عبد السلام هارون، م: الخانجي، ط: ٧- ١٤١٨هـ ١٩٩٨م، ١/ ٦٦،٦٧.

(٢) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده لابن رشيق، ت/ محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجبل، بيروت،١/٢٥٧.

الصَّفَا: الحجر الأملس، وسمي بذلك لأنه يصفو من الطين والرمل، وَالصَّفَا والصَّفْوَانُ وَالصَّفْوَاءُ بمعنى واحد، ويقال: يوم صفوان إذا كان صافي الشمس شديد البرد [١].

والمرو: حجارة بيض تقدح منها النار، والمفرد مَرْوَةٌ، وبها سميت المروة بمكة شرفها الله[٢].

وقوله: ﴿مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ إما أن يقصد بالشعائر العبادات والنسك، أو يقصد موضع العبادات والنسك، وعلى الأول يكون في الكلام إيجاز بالحذف؛ لأن نفس الجبلين لا يصح وصفهما بأنهما دين أو نسك، ويكون التقدير: إنَّ الطواف أو السعي بين الصفا والمروة من دين الله أو من النسك. وعلى الثاني يكون الكلام على ظاهره بلا حذف لأنَّ هذين الجبلين موضعان للعبادات والمناسك[٣].

والوجه الأول – من وجهة نظري– هو الأرجح لأن هذين الجبلين ليسا مقصودين لذاتهما وإنما المقصود الطواف والسعي بينهما، كذا في قوله تعالى: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ قرينة لفظية على المحذوف، ومن ثم فالتقدير: إن الطواف بالصفا والمروة من دين الله. وفي إضافة الشعائر إلى لفظ الجلالة مزيد تشريف وتعظيم.

---

(١) مقاييس اللغة لابن فارس، ت: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر ١٣٩٩هـ ١٩٧٩م. مادة " ص ف و" ٢٩٢/٣.

(٢) لسان العرب لابن منظور، دار صادر، بيروت، ط: ٣– ١٤١٤هـ. مادة (م را) ٢٧٥/١٥.

(٣) ينظر: مفاتيح الغيب:١٣٦/٤.

وقرأ حمزة ومن يطَّوع[1] بالياء وجزم العين، وتقديره: يتطوع، إلا أن التاء أدغمت فِي الطاء لتقاربهما، وهذا حسن لأن المعنى على الاستقبال، والشرط والجزاء الأحسن فِيهمَا الاستقبال، وإن كان يجوز أن تقول: من أتاك أعطيته. فتوقع الماضي موضع المستقبل فِي الجزاء، إلا أن اللفظ إذا كان وفق المعنى كان أحسن. وقرأ الباقون: تَطَوَّعَ[2] بالتاء وتضعيف العين على المضي[3].

فعلى القراءة الأولى " مَنْ " شرطية وجواب الشرط محذوف دل عليه قوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ والتقدير: فمن تطوع خيرًا جوزي. وعلى القراءة الثانية يجوز في " مَنْ " وجهان: الأول أن تكون شرطية ويكون قوله: ﴿تَطَوَّعَ﴾ مجزومًا بها. الثَّانِي: أن تكون بمعنى الذي، ودخلت الفاء في قوله " فَإِنَّ " للإبهام الذي في " مَنْ "، والفعل صلة لا موضع له من الإعراب، والفاء مؤذنة أن الثاني وجب لوجوب الأول [4].

وذُيِّلت الآية الكريمة باسمي الله الشاكر والعليم ﴿فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ والشكر من الله عزَّ وجلَّ المجازاة والثناءُ الجميل، فهو يجازي على الطاعة

---

(1) وهي قراءة حمزة وعاصم والكسائي وخلف ويعقوب والأعمش وأصله يتطوع فأدغمت التاء في الطاء، وقرأ ابن مسعود " يتطوع" بالفك وهي مقوية لقراءة حمزة ومن معه على الإدغام (ينظر: معجم القراءات:١/٢٢٠،٢٢١.)

(2) وهي قراءة ابن كثير ونافع وأبو عمرو وحفص عن عاصم وابن عامر(ينظر: معجم القراءات:١/٢٢٠.)

(3) الوسيط للواحدي:١/١٤٣.

(4) ينظر: المحرر الوجيز لابن عطية:١/٢٣٠، وينظر: مفاتيح الغيب:٤/١٣٩،١٣٨ وينظر التحرير والتنوير:٢/٦٥.

بالثواب، عليم بنية المتطوع، وإنَّما سَمَّى المجازاة على الطاعة شكرًا لوجوه أحدها: أن اللفظ خرج مخرج التلطف للعباد مبالغة في الإحسان إليهم. ثانيها: أن الشكر لما كان مقابلًا للإنعام أو الجزاء عليه سُمي كل ما كان جزاءً شكرًا على سبيل التشبيه. ثالثها: بيان أن الله يقبل الطاعة ويجزي عليها ويبالغ في الجزاء حتى لكأنه ينتفع بها وهو الغني عنها، فأوقعها موقع من ينتفع بها مع غناه عنها. وفي هذا تنبيه على أنه لا يضيع أجر محسن إذ لا يخفى عليه إحسانه، وذكر الوصفين معا ﴿شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ لأن ترك الثواب على الإحسان لا يكون إلا من جحود للفضيلة أو جهل فلذلك نفاهما بقوله: ﴿شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾، ويجوز أن يكون شاكر هنا وقع على سبيل الاستعارة التمثيلية حيث شبه شأنه – تعالى– في جزاء العبد على الطاعة بحال الشاكر لمن أسدى إليه نعمة، وفائدة هذا التشبيه تمثيل تعجيل الثواب وتحققه، لأن حال الْمُحْسَنِ إليه أن يبادر بشكر المُحْسِن. وقوله:(عليم) جاء ليدل على علمه بنيات عباده، وبما يأتي به العبد فيقوم بحقه من العبادة والإخلاص، وما يفعله لا على هذا الحد، وذلك ترغيب في أداء ما يجب على شروطه وتحذير من خلاف ذلك، كذا يدل التعبير باسمه العليم على علمه بقدر الجزاء فلا يبخس المستحق حقه[1].

وقد وقع هذان الاسمان من أسمائه تعالى هنا موقعا حسنا؛ لأن التطوع بالخير يتضمن الفعل والقصد، فناسب ذكر الشكر باعتبار الفعل، وذكر

(1) ينظر: مفاتيح الغيب:١٣٩/٤، وينظر: التحرير والتنوير:٦٥/٢.

العلم باعتبار القصد، وأخرت صفة العلم وإن كانت متقدمة على الشكر كما أن النية مقدمة على الفعل لرعاية الفاصلة [١].

ففي هذا التذييل طمأنة للنفوس، وترغيب في الإنفاق، ودعوة إلى الإخلاص، إضافة إلى ملاءمته للسياق، وهذا من حسن المقطع.

فمن حسن المقطع جودة الفاصلة وحسن موقعها وتمكّنها فى موضعها، وهو على ثلاثة أضرب أوردها أبو هلال (ت٣٩٥هـ) في الصناعتين، وذكر أن الضرب الثالث منها: أن تكون الفاصلة لائقة بما تقدّمها من ألفاظ الجزء من الرسالة أو البيت من الشعر؛ وتكون مستقرة في قرارها، ومتمكنة في موضعها؛ حتى لا يسدّ مسدها غيرها؛ وإن لم تكن قصيرة قليلة الحروف، كقول الله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى﴾ وقوله تعالى: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ فأبكى مع أضحك وأحيا مع أمات، والأنثى مع الذكر، والأولى مع الآخرة، والرضا مع العطية في نهاية الجودة، وغاية حسن الموقع [٢].

وأذكر هنا كلمة نقلها الجاحظ (ت٢٥٥هـ) عن بعضهم يقول فيها " الناس موكّلون بتفضيل جودة الابتداء، وبمدح صاحبه، وأنا موكل بتفضيل جودة القطع، وبمدح صاحبه. وحظ جودة القافية وإن كانت كلمة واحدة، أرفع من حظ سائر البيت" [٣].

---

(١) ينظر: البحر المحيط:٦٨/٢.

(٢) الصناعتين لأبي هلال العسكري، ت/ علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت،١٤١٩هـ، ص٤٤٨.

(٣) البيان والتبيين:١١١/١.

المبحث الرابع

التعبير باسم الله العليم في مقام الحديث عن الأحكام الشرعية

ورد التعبير باسم الله العليم في سورة البقرة في مقام الحديث عن الأحكام الشرعية بأنواعها من وصية ونكاح وطلاق وبيع وشهادة، وفي ذلك حثٌ على الالتزام بتلك الأحكام، وتنبيهٌ على وجوب اتباعها؛ لأنها صدرت عمن أحاط علمه بدقائق الأمور وخفايا النفوس، ومن ثم فإنَّ المصلحة فيما شرعه من أحكام، والخير والسعادة في الالتزام بها وإقامتها على الوجه الذي أراده الله، وتلك الأحكام تتسم بالموضوعية التي لا محاباة ولا مجاملة فيها لطرف على حساب آخر، وبذلك يتحقق العدل، ويعم السلام والخير، وتتآلف النفوس، وتسود المودة بين أفراد المجتمع فيكون كالجسد الواحد والبنيان المرصوص.

ومن المواضع التي ورد فيها اسم الله العليم قوله –تعالى– في معرض الحديث عن الوصية والتحذير من تبديلها: ﴿فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة/١٨١] وقد جاءت هذه الآية تعقيبًا على ما ذُكر قبلها من أحكام الوصية وما ينبغي أن يتوفر فيها، حيث أوجب –سبحانه– أن تكون الوصية بالمعروف الذي لا شطط ولا جور فيه، فإذا ما توافر فيها ذلك فلا حرج بعد على المتوفى ولا إثم يلحقه إن بُدِّلت وصيته بعد موته، إذ الإثم على من بدَّلها.

والضمير في قوله: ﴿فَمَنْ بَدَّلَهُ﴾ يعود على محذوف من الكلام يدل عليه الظاهر، والتقدير: فمن بدل أمر الميت ووصيته إلى من أوصَى إليه، بما أوصَى به، لمن أوْصَى له. وإنما كان الضمير عائدًا على محذوف يدل

عليه الظاهرُ، لأن قوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ﴾ من قول الله، والتبديل إنما يكون لوصية الموصِي. فأما أمرُ الله بالوصية فلا يقدر أحدٌ أن يبدِّله، ويجوز أن يكون الضمير في قوله: ﴿فَمَنْ بَدَّلَهُ﴾ عائدًا على الوصية. وأما الضمير في قوله: ﴿بَعْدَمَا سَمِعَهُ﴾ فعائد على "الهاء" الأولى في قوله: ﴿فَمَنْ بَدَّلَهُ﴾ وأما "الهاء" التي في قوله: ﴿فَإِنَّمَا إِثْمُهُ﴾ فإنها مكنيٌّ التبديل، كأنه قال: فإنما إثم ما بدَّل من ذلك على الذين يبدلونه [1].

و على القول بأن الضمير في ﴿بَدَّلَهُ﴾ عائدٌ على الوصية، يكون الضمير قد جاء مذكَّرًا مع أن الوصية مؤنثة؛ لكي يتناولها وغيرها من متعلقاتها، و "من" في قوله: ﴿فَمَنْ بَدَّلَهُ﴾ عام في الوصي والموصى له، والشاهد والحاكم وكل من له مدخل في ذلك إذا غيَّر شيئًا بعدما علمه، فإنَّ إثم ما يجري في ذلك راجع إليه [2].

وعبَّر بإنَّما في قوله: ﴿فَإِنَّمَا إِثْمُهُ﴾ وهي مفيدة للحصر ومتضمنة لمعنى النفي والاستثناء، والمعنى كما ذكره الزمخشري: " فما إثم الإيصاء المُغَيَّر أو التبديل إلا على مبدّليه دون غيرهم من الموصي والموصى له، لأنهما بريان من الحيف" [3].

---

(1) جامع البيان للطبري: ٣/٣٩٦، ٣٩٧.

(2) ينظر: تفسير الراغب الأصفهاني، ت: د. محمد عبد العزيز بسيوني، كلية الآداب، جامعة طنطا، ط:١-١٤٢٠هـ ١٩٩٩م، ١/٣٨٣.

(3) ينظر: الكشاف: ١/٢٢٤.

وعبارته توحي بأنه من القصر الإضافي، وهو قصر إفراد، ردًا على من يعتقد مشاركة الموصي أو الموصى له لمن بدل في الإثم.

والمقصود من هذا القصر إبطال تعلل بعض الناس بترك الوصية؛ بعلة الخوف من عدم تنفيذها من قبل الموكول إليهم تنفيذها، أي: فعليكم بالإيصاء، وأما وجوب التنفيذ فمتعين على ناظر الوصية، فإن بدَّله فعليه إثمه(١).

وعبَّر بالجمع دون الإفراد في قوله: ﴿عَلَى الذين يُبَدِّلُونَهُ﴾ حملًا على المعنى إذ لو حمل على اللفظِ لقال: فإنَّما إثمُه عليه أو على الذي يُبَدِّله. وإيثار الجمع للإشعار بتعدد المبدِّلين أنواعًا أو كثرتِهم أفرادًا، والإيذانِ بشمول الإثمِ لجميع الأفراد، ووضعُ الموصولِ في موضع الضميرِ الراجعِ إلى "مَنْ" لتأكيد الإيذان بعِلّية مَا في حيزِ الصِّلةِ الأولى، ففيه إشارة إلى أن سبب الإثم هو التبديل لا غيره (٢).

ثم ذيَّل –سبحانه– الآية بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ وهذا التذييل فيه تنبيهٌ على علمه المحيط، وفيه كذلك تهديدٌ ووعيدٌ لمن تحايل لإبطال الحقوق والاستيلاء على ما ليس له بأية وسيلة كانت، بأن استغل ضعف الموصى له، أو بدَّل وصية الموصي، فمثل هذا التحايل والخداع إذا استطاع العبد أن يخفيه ويستره فإنَّه لا يمكنه أن يخفيه على الله، وبأدنى تأمل نجد أن هذين الاسمين من أسمائه تعالى هما الأنسب والأليق بالسياق؛ ذلك أن السياق يتناول قضية من أهم القضايا، وهي قضية الوصية فيما تركه الميت من

(١) ينظر: التحرير والتنوير:١٥٢/٢.

(٢) ينظر: إرشاد العقل السليم لأبي السعود:١٩٧/١.

مال بعد موته، والمقبل على الموت الأصل أنه سيتحرى العدل فيما أوصى به، وسيراعي في وصيته الضعيف من ورثته الذي لا قدرة له على انتزاع حقه وأخذ ما له، وبالموت تسلب القدرة من الموصي ويسهل تبديل وتغير ما أوصى به تبعًا للأهواء، فيستولي القوي على حق الضعيف، لكن إذا راعه هذا التهديد، وأدرك أن الله سميعٌ لما أوصى به الميت، وعليمٌ ومطلعٌ على من يرغب في تبديل وصيته رجع إلى نفسه فزجرها عن الوقوع في هذا الأمر لما يستتبعه من غضب الله ومقته.

وإذا كان الله سميعًا عليمًا وهو قادرٌ فلا حائل بينه وبين مجازة الْمُبَدِّلِ، والتأكيد بـ (إنَّ) للإشارة إلى أن من يقدم على التبديل يكون كمن ينكر أنَّ الله عالم، فلذلك أكد له الحكم تنزيلًا له منزلة المنكر، وفي هذا من التوبيخ ما فيه [1].

وورد اسم الله العليم في معرض الحديث عن أحكام الإيلاء والطلاق فقال تعالى: ﴿ وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٢٤) لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ (٢٢٥) لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٢٦) وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة/٢٢٤-٢٢٧]

فالآيات بدأت بالحديث عن اليمين واللغو فيه، ثم ثنت بالحديث عن حكم الإيلاء، فنهى أولًا أن يجعل العبد اليمين أو الحلف بالله حاجزًا بينه وبين فعل الخير والمعروف ونحوه من وجوه البر، بل إذا حلف العبد وبدا له بعدُ ما هو خير من يمينه فليفعل ما هو خير ثم ليكفر عن يمنه، كما ورد بذلك

(١) ينظر: التحرير والتنوير: ١٥٣/٢.

الهدي النبوي حيث قال –صلى الله عليه وسلم– : (إِذَا حَلَفْتَ عَلَى يَمِينٍ فَرَأَيْتَ غَيْرَهَا خَيْرًا مِنْهَا، فَأْتِ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ، وَكَفِّرْ يَمِينَكَ)[1] والعُرْضَةُ: فُعْلَةٌ بمعنى مفعول، كالقبضة والغرفة، وهي اسم ما تعرضه دون الشيء، من عرض العود على الإناء، فيعترض دونه ويصير حاجزاً ومانعاً منه. تقول: فلان عُرْضَةٌ دون الخير. والعُرْضَة أيضًا: المعرض للأمر. وقوله: ﴿أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا﴾ عطف بيان لأيمانكم، أي للأمور المحلوف عليها التي هي البر والتقوى والإصلاح بين الناس. واللام في ﴿لِأَيْمَانِكُمْ﴾ متعلقة بالفعل، أي ولا تجعلوا الله لأيمانكم برزخاً وحجازاً. ويجوز أن يتعلق بـ: (عُرْضَةً) لما فيها من معنى الفعل [2].

وقوله: ﴿أَنْ تَبَرُّوا﴾ تقديره: في أن تبروا، فسقط في، وقال أبو عبيدة: معناه: أن لا تبروا، فحذفت لا، كقوله: ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا﴾ [النساء: ١٧٦]، وكقوله: ﴿رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ﴾[النحل: ١٥]، والمعنى: لئلا تضلوا، ولئلا تميد بكم. وقال أبو العباس: تقديره: لدفع أن تبروا، فحذف المضاف [3].

وهذه الآية الكريمة جاءت تمهيدًا لآية الإيلاء المذكورة بعدها ووقعت موقع الاعتراض بين جملة ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ﴾ وجملة ﴿لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ

---

(1) رواه أبو داوود في سننه باب (الرجل يكفِّر قبل أن يحنث) حديث رقم٣٢٧٧. ت: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت، ٢٢٩/٣.

(2) ينظر: الكشاف:٢٦٧/١.

(3) ينظر: الوسيط للواحدي:٣٣٠/١.

مِنْ نِسائِهِمْ﴾ فهي تفتح الباب لمن آلى من زوجته أن يراجع نفسه، ويكفر عن يمينه، وأن لا يجعل هذا اليمين حاجزًا له عن البر والخير[1].

وذيّلت الآية باسم الله العليم، وهذا التذييل إنَّما قصد به التأكيد على السعي في الخير والإصلاح وسائر ألوان البر دون التعلل باليمين أو جعلها مانعًا له من الخير؛ فإنَّ الله مطلعٌ على نية العبد، وسميعٌ لأقواله، وعليم بصدق نيته من إرادة الخير والبر، ومن ثم فلا عليه إن هو حلف يمينًا ثم رأى العدول عنها، والسياق كما نرى مرشح لهذا التذييل؛ لأن الأمر متعلق بدواخل النفس وسرائرها، ولا يطلع على ذلك إلا من أحاط علمه بكل شيء، ووسع كل شيء، فهو وحده من يعلم مقصد العبد من العدول عن اليمن أهو إرادة الخير والبر والإصلاح بين الناس؟ أم مجرد التلاعب والاستهانة بالأيمان واتخاذها وسيلة للخداع والتمويه على الناس؟ ، فهذا التذييل بمنزلة التوسعة والحث على ما فيه خير للأول، والتهديد والتضييق والأخذ على يد الثاني، فهو توسعة للأول من حيث إنه لما أيقن اطلاع الله على ما في نفسه من قصد الخير فإن صدره ينشرح لهذا الخير دون أن يعوقه اليمين الذي حلفه، ودون أن يتحرج أو يتأثم من العدول عنه، وفي الوقت نفسه تضييق وتهديد للثاني من حيث إنه إذا أيقن بسعة علمه –تعالى– واطلاعه على ما تخفيه نفسه من إرادة الاستهانة باليمين واتخاذه وسيلة للتمويه والمخاتلة فترتعد لذلك فرائصه وينتهي عن غيه ويثوب إلى رشده.

ثم جاءت آية الإيلاء بعد هذا التمهيد، والإيلاء نوع من الحلف، حيث يحلف الرجل ألا يمس زوجته، وكانوا في الجاهلية يقصدون إليه؛ ليعضلوا المرأة فتصير لا كالمتزوجة من حيث تمتعها بما تتمتع به الزوجة من حقوق

(1) ينظر: التحرير والتنوير: ٢/٣٧٦.

مادية ومعنوية، ولا كالمطلقة من حيث إتاحة الفرصة لها في الزواج بغيره، فلما جاء الإسلام رفع هذا الظلم الذي فيه هضمٌ لحق المرأة، وجعل لها إن آلاها الزوج أن تتربص أربعة أشهر، فإن فاء قبل فوات المدة فهي في عصمته، وإلا بأن انقضت مدة التربص دون أن يراجعها فالمسألة خلافية بين الفقهاء وأحكام الإيلاء مقررة في كتب الفقه.

والترابط بين هذه الجملة وما سبقها وما لحقها واضحٌ، وهو ربط غاية الجمال والروعة، حيث ترى كل جملة وقد تضمنت ما هو بمنزلة التمهيد والتوطئة لما يليها، ومن ثم تجد تسلسًا معنويًا وتدرجًا منطقيًا في شئونٍ كانت متفرقةً، ارتجلتها الحوادث ارتجالًا، انظر كيف استهل الحديث بإرساء الأساس، وذلك بتقرير حق العشرة والمخالطة الزوجية، ثم انظر كيف تلاه النهي عن إدخال اليمين في أمثال هذه الحقوق المقدسة، سواء بالحلف على منع البر عن مستحقه، أو على قطع ما أمر الله به أن يوصل، وكيف عقبه بحكم فرع من فروع هذه المبدأ متصل بالعلاقة الزوجية، وهو حكم من حلف على الامتناع عن زوجته، وكيف اتصل من هنا بأحكام الطلاق وما يتبع الطلاق من حقوق وواجبات[1].

وفي قوله: ﴿لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ﴾ إيجاز بالحذف، إذا التقدير: للذين يؤلون أن يعتزلوا من نسائهم، فحذف الفعل يعتزلوا اكتفاءً بدلالة الكلام عليه[2].

(1) ينظر: النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن، للشيخ/ محمد عبدالله دراز، دار القلم، ط: ١٤٢٦هـ- ٢٠٠٥م، ص٢٧٠.

(2) ينظر: الكشف والبيان عن تفسير القرآن للثعلبي:١٦٨/٢.

وهذا الحذف إنما يُحتاج إليه إذا حملنا لفظ الإيلاء على المعهود اللغوي، أما إذا حملناه على المتعارف في الشرع فلا حاجة بنا لهذا التقدير، إذا المعروف شرعًا أن الإيلاء اعتزال [١].

وتقديم المسند ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ﴾ على المسند إليه ﴿تَرَبُّصُ﴾ للاهتمام بهذه التوسعة التي وسع الله على الأزواج، وتشويق لذكر المسند إليه [٢].

ومن في قوله: ﴿مِنْ نِسَائِهِمْ﴾ يتعلق بقوله: ﴿يُؤْلُونَ﴾ وآلى يتعدى بعلى، ولذا قيل من بمعنى على، وقيل: بمعنى في، وقيل: زائدة، والتقدير: يؤلون أن يعتزلوا نساءهم، وفي الكلام إيجاز بحذف المضاف، والتقدير: على ترك وطء نسائهم [٣].

وقوله: ﴿وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ﴾ يشير إلى شرط محذوف دل عليه قوله: ﴿فَإِنْ فَاءُوا﴾ والتقدير: فإن لم يفيئوا فقد وجب الطلاق، وقوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ دليل الجواب، أي فقد لزمهم وأمضى طلاقهم[٤].

وقد استنبطوا من التذييل بقوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أنها لا تطلق بعد مضي الأربعة أشهر ما لم يطلقها زوجها أو السلطان؛ لأنه شرط فيه العزم، ولأنّ السماع يقتضي مسموعًا، والقول هو الذي يُسمَعُ، فالسماع راجع إلى الطلاق. فإن قيل: العزم عزم القلب لا لفظ اللسان، فإلى أي شيء يرجع

---

(١) ينظر: مفاتيح الغيب:٦/٤٢٩.

(٢) ينظر: التحرير والتنوير:٢/٣٨٥.

(٣) ينظر: البحر المحيط:٢/٤٤٧.

(٤) ينظر: التحرير والتنوير:٢/٣٨٦.

السماع؟ أجيب بأن الرجل يعزم بقلبه ثم يطلّق بلسانه، وقد ذكر الله العزم والمراد منه إنشاء اللفظ في قوله: ﴿وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ﴾ [البقرة: ٢٣٥] وليس العزم هنا بمعنى النية؛ لأن التعريض بالخطبة مباحٌ في عدة الوفاة، والتعريض بالخطبة يتضمن القصد بالقلب وزيادة، وإنما حرم إنشاء عقد النكاح قبل أن يبلغ الكتاب أجله [١].

وإلى جانب ما استنبطه العلماء من هذا التذييل فإنَّ إيثار التعبير باسمي الله السميع والعليم فيه حثٌ للأزواج على التزام شرع الله، وعدم مجاوزة حدوده، أو الوقوع في معصيته وغضبه، أو الاستهانة بأحكامه وشرعه، فإنَّ عاقبة ذلك الخسران لأنَّ الله لا يخفى عليه شيء من أمر الزوج الذي يستهين بأحكام الله، قاصدًا إيقاع الضرر على الزوجة وإعناتها أو سلبها حقًا من حقوقها التي كفلها الشرع لها، فليس للزوج أن يعضل زوجته بأن يحلف عليها ألا يقربها وفي الوقت نفسه لا يطلقها، فتلك صورة من صور الإذلال الظاهر والظلم البين التي يأبها الشرع ويرفضها، ولذا حسم الشرع تلك المسألة وخيَّر الزوج بين الرجوع و الطلاق؛ حتى لا يستبد بزوجته مستندًا إلى ما له من سلطة شرعية عليها؛ حيث جعل الشرع الطلاق بيده لا بيدها، فإنَّه إن جعل أمر الزوجة له ففي الوقت نفسه ألزمه بحسن المعاشرة، ومن ثم فإن التعبير باسمي الله السميع والعليم جاء متناغما مع السياق، ولو أنك حاولت وضع اسمين من أسمائه تعالى موضع هذين الاسمين لاضطربت العبارة وفسد المعنى، ولذا فإن التعبير بهذين الاسمين أوفق بالمقام وأدل

---

(١) ينظر: التفسير البسيط للنيسابوري، ت: لجنة علمية بجامعة الإمام محمد بن سعود، الناشر: عمادة البحث العلمي، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ط:١- ١٤٣٠ هـ. ٤/٢٠٧، ٢٠٨.

على المعنى؛ إذ من المعلوم أنَّ وصول الزوجين إلى هذه الدرجة من الخلاف لاشك يسبقه أو يلحقه انطواء النفوس على الشر، وإطلاق اللسان وخوضه بما لا يليق وفيما يضر، فإذا علم كل منهما أنَّ الله سامعٌ لما يقول بغير حق، عالمٌ بما تنطوي عليه نفسه من حقد وشر، عاد إلى نفسه فزجرها وكبح جماحها وأمسك لسانه ولم يطلق له العنان، وتلك المعاني التي استفيدت من هذا التذييل ضمنًا جاء التصريح بها في قوله عقب هذه الآيات: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة/٢٣١] فلم يكتف القرآن بالإشارة والتلميح بل لجأ إلى التوضيح والتصريح؛ حتى لا تكون لأي منهما حجة في الإضرار بصاحبه، وتأمل معي قوله: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ فكأنَّ ما أراده من إيقاع الضرر بصاحبه والظلم له لم يقع في الحقيقة إلا عليه؛ إذ عرَّضه لغضب الله ومقته، فصار بذلك ظالمًا لنفسه لا لصاحبه، وتأمل كذلك قوله: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا﴾ وما يتضمنه من تهديدٍ ووعيدٍ، وقوله: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ وما فيه من امتنانٍ عليهم حيث هداهم لهذا الدين القويم، وفيه كذلك تعريضٌ بما كانوا عليه في جاهليتهم وما تعارفوا عليه من أمور فيها ظلم و تعد على الأزواج لضعفهن، ومثل ذلك لا يليق بهم بعد الإسلام، ثم جاء التذييل بقوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ فكان تهديدًا بعد تهديدٍ ووعيدًا إثر وعيدٍ، وكما ختمت

الآية السابقة باسمه تعالى العليم ختمت هذه أيضا باسمه العليم، وما قيل في هذه يقال في تلك.

يقول الشيخ دراز – رحمه الله– معقبًا على تلك الآيات الكريمة، ومظهرًا ما اشتملت عليه من إعجاز يدل دلالة قاطعة على أن هذا الكتاب من عند الله، إذ لا يستطيع محمد –صلى الله عليه وسلم– ولا أحد غيره أن يأتي بهذا النمط الجديد الذي يجمع تلك المتفرقات، ويجمع بين تلك الأشتات في صورة مألوفة لا يداخلها أدنى اضطراب ولا يعتريها أي خلل، أضف إلى جمال العبارة ودقة النظم ما اشتملت عليه هذه الآيات من أحكام غاية في الدقة والتفصيل بصورة لا يستطيعها بشر. يقول– رحمه الله–: " فإذا أعجبك هذا التسلسل المعنوي، وهذا التدرج المنطقي، في شئون كانت متفرقة، ارتجلتها الحوادث ارتجالًا، فتعالَ معي لأضع يدك في هذه القطعة على حرف واحد تلمس فيه مبلغ الإحكام في التأليف بين هذه المتفرقات، حتى صارت شأنًا واحدًا ذا نسق واحد: ذلك هو موضع النقلة من فتيا الإيلاء إلى فتيا الطلاق: ﴿وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ﴾ ألا ترى كيف أدير الأسلوب في حكم الإيلاء على وجه معين، يطل القارئ منه على أفق متلبد ينذر باحتمال الفراق؛ فلما جاء بعده الحديث عن أحكام الفراق لم يكن غريبًا، بل وجد مكانه مهيأً له من قبل؛ كأن خاتمة حكم الإيلاء كانت بمثابة عروة مفتوحة، تستشرف إلى عروة أخرى تشتبك معها؛ فلما جاءت فتيا الطلاق في إبانها كانت هي تلك العروة المنتظرة. وما هو إلا أن التقت العروتان حتى اعتنقتا وكانت منهما حلقة مفرغة لا يدرى أين طرفاها، وهكذا أصبح الحديثان حديثًا واحدًا. تُرى من علم محمدًا –لو كان القرآن من عنده– أنه سوف يستفتى يومًا ما في تلك التفاصيل الدقيقة لأحكام الطلاق؟

ومن علمه أنه سيجد لهذا السؤال جوابًا، وأن هذا الجواب سيوضع في نسق مع حكم الإيلاء، وأنه ينبغي لاستقامة النسق كله أن يساق حكم الإيلاء الذي وقع الاستفتاء فيه الآن، على وجه يجعل آخر شقيه هو أدناهما إلى حديث الطلاق الذي سوف يسأل عنه بعد حين؛ لكي ينضم الشكل إلى شكله متى جاء وقت بيانه؟ ... هيهات أن يحوم علم البشر حول هذا الأفق الأعلى؛ فإنما ذلك شأن عالم الغيب الشهادة، الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى.." [1].

وجاء التعبير كذلك باسم الله العليم في سياق الحديث عن الدَّين والبيع، و كتابة كل منهما، والإشهاد عليهما، فقال تعالى: ﴿وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة/٢٨٢]

والأمر في قوله: ﴿وَأَشْهِدُوا﴾ حمله بعضهم على ظاهره من إفادة الوجوب، ثم اختلفوا في إحكام الآية أو نسخها، وهو عند الجمهور للندب والإرشاد [2].

وقوله: ﴿وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾ يحتمل أن يكون الفعل مبنيًا للفاعل فيكون الكاتب والشهيد قد نُهيا أن يَضَارَّا أحدًا، بأن يزيد الكاتب في الكتابة أو يحرِّف، وبأن يكتم الشاهد الشهادة أو يغيِّرها أو يمتنع من أدائها. واحتجَّ من اختار هذا الوجه بأنَّ الله تعالى قال بعد: ﴿وَإِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ﴾

(1) النبأ العظيم: ص٢٧٠، ٢٧١.

(2) ينظر: إرشاد العقل السليم لأبي السعود:١/٢٧١.

واسم الفسق بمن يُحرِّف الكتابة ويمتنع عن الشهادة أولى منه بمن أبرم أو أضر الكاتب والشاهد، ولأنَّه تعالى قال أيضا فيمن يمتنع عن الشهادة: ﴿فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾ والآثم والفاسق متقاربان. ويحتمل أن يكون الفعل مبنيًا للمفعول فنهى أن يضارهما أحدٌ بأن يُعنَّتا، ويُشق عليهما في ترك أشغالهما، ويُطلب منهما مالا يليق في الكتابة والشهادة، واحتجَّ من قال بهذا بأنه قد قرىء: وَلَا يُضَارَرْ، بالفك وفتح الراء الأولى[1]، ولأنَّ الخطاب من أول الآيات إنما هو للمكتوب له وللمشهود له، وليس للكاتب والشاهد خطاب تقدم، ويرجح هذا الوجه أنَّه لو كان الخطاب للكاتب والشهيد لقيل: وإن تفعلا فإنه فسوق بكما، وإذا كان خطابًا للمداينين فالمنهيون عن الضرار هم[2].

وقد ذكر ابن عرفة أنه يصح حمله على الأمرين معًا على القول بجواز تعميم اللفظ المشترك في مفهوميه معا، كما قالوا في الجون والقرء ونحوه. فإن قيل: هذان لفظان والمشترك إنما يكون في اللّفظ الواحد، رُد بأن سيبويه قد قال في المشترك: إنهما لفظان دالاّن على معنيين[3].

وما ذكره ابن عرفة هو ما تميل إليه النفس؛ ذلك أن دلالة اللفظ على أكثر من معنى أحد خصائص النظم القرآني وعلامة بارزة من علامات ثراء اللفظ وغناه، فالقرآن الكريم كثيرا ما يستعمل ألفاظا تتسع لعدة وجوه ومعاني،

---

(1) قرأ بالفك وفتح الراء الأولى عمر وابن مسعود وابن كثير ومجاهد وابن عباس وابن أبي إسحاق والضحاك(ينظر: معجم القراءات، د. عبداللطيف الخطيب ٤٢١/١).

(2) ينظر: البحر المحيط:٧٤٠/٢، ٧٤١.

(3) ينظر: تفسير ابن عرفة، ت: د. حسن المناعي، مركز البحوث بالكلية الزيتونية، تونس، ط:١-١٩٨٦م. ٧٩٣/٢.

ومن الإجحاف البين حمل اللفظ على أحد هذه المعاني دون غيره لاسيما إذا لم يكن هناك ما يرجح هذا الحمل.

وهذا ما يفسر لنا اختلاف السلف في التفسير، وغالب ما يصح عنهم من الخلاف يرجع إلى اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد[1].

وفي قوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ بدأ بالأمر بالتقوى لأنَّها مِلَاكُ الخير، وبها ترك الفسق المذكور في الآية آنفا، ثم ثنَّى بذكر العلم وهو من أجلِّ النِّعم، وفي التعبير بالمضارع في قوله: ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ﴾ وعد بدوام هذا العلم، وأدخل الواو في جواب الأمر ليقتضي أنَّ تعليمه -سبحانه- لأهل التقوى ليس هو مسببًا عن التقوى، بل هو بمحض الفضل والكرم، لكن في عطف التعليم على التقوى ما يشير إلى أنَّها طريق موصل إليه، وكُرر لفظ الجلالة في الجمل الثلاث؛ لإدخال الروع وتربيةِ المهابةِ وللتنبيه على استقلالِ كل منها بمعنى على حياله، فإنَّ الأولى حثٌّ على التقوى، والثانية وعدٌ بالإنعام، والثالثة تعظيمٌ لشأنه تعالى[2].

وذيلت الآية الكريمة بذكر اسم الله العليم، وإذا نظرت وجدت أن هذا التذييل هو الأنسب؛ لما اشتملت عليه الآية الكريمة من معان وثيقة الصلة بهذا الاسم من أسمائه تعالى، فالآية بدأت بالأمر بالإشهاد على البيع منعًا

---

(1) ينظر: مقدمة في أصول التفسير لابن تيمية، م: الحياة، بيروت، ط:١٤٩٠هـ/ ١٩٨٠م، ص١١.

(2) ينظر: إرشاد العقل السليم لأبي السعود:١/٢٧١. وينظر: البحر المديد:١/٣١٥. وينظر: التحرير والتنوير:٣/١١٩.

لوقوع الخصومة بين المتبايعين، ولكن قبل الإشهاد وبعده ليعلم كلٌ من المتبايعَين والشهود أنَّ الله معهم بعلمه ومطلع على صدق كلٍ منهم أو كذبه، وما يبديه أو يخفيه، ومن ثم فلا ينبغي للمتبايعَين أو الشهود أن يجنح أحدهم عن الحق أو يميل إلى الباطل، ولذا جاء في الحديث (البَيِّعَانِ بِالخِيَارِ مَا لَمْ يَتَفَرَّقَا، – أَوْ قَالَ: حَتَّى يَتَفَرَّقَا – فَإِنْ صَدَقَا وَبَيَّنَا بُورِكَ لَهُمَا فِي بَيْعِهِمَا، وَإِنْ كَتَمَا وَكَذَبَا مُحِقَتْ بَرَكَةُ بَيْعِهِمَا)[1] ومن ثم كان التعبير باسم الله العليم حتى لا يبغي أحدٌ منهما على صاحبه أو يخدعه.

ومن جهة أخرى نهت الآية عن إضرار الشاهد أو الكاتب بأحد المتبايعين– بأن يشهد بغير حق أو يكتب لأحدهما ما ليس له، كما نهت عن إضرار المتبايعين بالشاهد أو الكاتب بأي نوع من أنواع الضرر، وعدت هذا الفعل من الفسوق الذي لا يليق بمؤمن يوقن باطلاع الله عليه وبعلمه بما أوقعه بصاحبه من ضرر، ولذا جاء التذييل باسم الله العليم ليرتدع من يقصد الضرر وإلحاق الأذى بالآخر.

كذا حذرت الآية من الفسوق، وأمرت بالتقوى، ثم ذيلت بإثبات علمه للتنبيه على أن الله عالم بمن اتقاه وسعى في رضاه، وبمن فسق عن أمره وآثر المعصية على الطاعة والباطل على الحق، ثم إنَّه تعالى امتن على عباده بنعمة العلم، فهو قد علمهم بعد جهل، وهداهم بعد ضلال، وأرشدهم إلى ما فيه صلاح أمرهم وسعادتهم في معاشهم ومعادهم، ومثل هذا لا يصدر إلا عن عليم أحاط علمه بالأشياء، ولا يعزب عنه مثقال ذرة في

---

(1) رواه البخاري (بَابُ: إِذَا بَيَّنَ البَيِّعَانِ وَلَمْ يَكْتُمَا وَنَصَحَا) حديث رقم(٢٠٧٩) ت: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي) ط:١– ١٤٢٢هـ، ٥٨/٣.

الأرض ولا في السماء، ومن ثم كان التذييل باسم الله العليم مناسبا تمام المناسبة للسياق.

وجاء التعبير أيضا باسم الله العليم في آية عقب هذه الآية السابقة مباشرة، ولها صلة وثيقة بها، من حيث إنهما تتحدثان عن الوسائل التي يكون بها حفظ الأموال وعدم التعدي على الحقوق، وذلك قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [البقرة/٢٨٣]

فقد أمر الله بالإشهاد على البيع، وأمر بكتابة الدين؛ لئلا يقع نزاع بين الدائن والمدين، وذلك في قوله تعالى: ﴿إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ﴾، وجاءت هذه الآية الكريمة لتبيح ترك كتابة الدين إذا لم تتوافر وسائل الكتابة كأن يكون المتداينان على سفر ولا يجدان الكاتب أو الكتاب، فقد قرأ ابن عباس وأبو العالية ومجاهد: كتابا[١] وقالوا: ربّما وجد الكاتب ولم يجد المداد ولا الصحيفة، وقرأ الضحاك: كُتَّابا على جمع الكاتب. وقرأ الباقون: كاتِباً[٢]. وخيَّرت عندئذ الدائن بين أن يأخذ رهنًا من المدين أو أن يعطيه المال بلا رهن فيكون أمانة عنده يلزمه ردها [٣].

---

(١) ينظر: معجم القراءات: ١/٤٢٣.

(٢) ينظر: معجم القراءات: ١/٤٢٣.

(٣) ينظر: الكشف والبيان عن تفسير القرآن للثعلبي، ت: الإمام أبي محمد بن عاشور، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط:١- ١٤٢٢هـ ٢٠٠٢م، ٢/٢٩٧وما بعدها.

وقوله: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ﴾ حمله الضحاك ومجاهد على ظاهره، فلم يجيزا الرهن إلا في السفر عند عدم الكاتب، وذهب الجمهور إلى أنه خرج مخرج الأعم الأغلب وليس على سبيل الشرط؛ لما ثبت من أن النبي- صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- رهن درعه ولم يكن ذلك في السفر ولا عند عدم الكاتب [1].

وما ذهب إليه الجمهور هو الأرجح إذ ليس المراد إباحة الرهن في السفر ومنعه في الحضر، لكن لما كان السفر مظنة لفقد الكاتب والشهود، أمر بالارتهان على سبيل الإرشاد لصاحب المال لحفظ ماله حال السفر وفقد الكاتب والشهود، فله عند ذلك أن يستعيض بالرهن عن الكتابة.

وقوله تعالى: ﴿فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ﴾ فيه إيجاز بالحذف، والمحذوف يجوز أن يكون الخبر والتقدير: فرهان مقبوضة بدل من الشاهدين، أو فعليه رهن مقبوضة، ويجوز أن يكون المبتدأ هو المحذوف والتقدير: فالوثيقةُ رهنٌ مقبوضةٌ [2].

وأطلق اسم الأمانة على الدين في الذمة وعلى الرهن فقال تعالى: ﴿فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ﴾ لأنَّ اسم الأمانات له مهابة في النفوس، ثم إنَّه لما سماه أمانه دل على أنَّ عدم أدائه ينعكس خيانة لأنها ضدها. ثم جاء قوله: ﴿وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ﴾ ليؤكد على أداء تلك الأمانة ويحذر من أكلها

(1) ينظر: معالم التنزيل للبغوي: ١/٣٩٧.

(2) ينظر: مفاتيح الغيب للرازي: ٧/١٠٠.

بالباطل، وذكر اسم الجلالة فيه مع إمكان الاستغناء بقول: وليتق ربه؛ لإدخال الروع في ضمير السامع وتربية المهابة في قلبه(١).

وكما حذر من أكل أموال الناس بالباطل، نهى و حذر من كتمان الشهادة لما يترتب عليه من ضياع الحقوق ولما فيه من الإضرار بصاحب الحق، فقال: ﴿ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ ﴾ وفي إضافة الإثم إلى القلب مبالغة في الذم، فلم يقتصر على قوله: ﴿ فَإِنَّهُ آثِمٌ ﴾ وإنَّما ذكر القلب- والجملة هي الآثمة لا القلب وحده- ؛ لأن كتمان الشهادة: هو أن يضمرها ولا يتكلم بها، فلما كان إثمًا مقترفًا بالقلب أسند إليه، لأنّ إسناد الفعل إلى الجارحة التي يُعمل بها أبلغ. ولذا نراهم يقولون عند قصد التوكيد: هذا مما أبصرته عيني، ومما سمعته أذني، ومما عرفه قلبي، ولأنّ القلب هو رئيس الأعضاء والمضغة التي إن صلحت صلح الجسد كله وإن فسدت فسد الجسد كله، فكأنَّه قيل: فقد تمكن الإثم في أصل نفسه، وملك أشرف مكان فيه. ولئلا يظن أن كتمان الشهادة من الآثام المتعلقة باللسان فقط، وليعلم أنّ القلب أصل متعلقه ومعدن اقترافه، واللسان ترجمان عنه. ولأنّ أفعال القلوب أعظم من أفعال سائر الجوارح وهي لها كالأصول التي تتشعب منها. ألا ترى أنّ أصل الحسنات والسيئات الإيمان والكفر، وهما من أفعال القلوب، فإذا جعل كتمان الشهادة من آثام القلوب فقد شهد له بأنه من معاظم الذنوب (٢).

(١) ينظر: التحرير والتنوير: ٣/١٢٥،١٢٢.

(٢) الكشاف:١/٣٣٠

وذيل الله تعالى الآية الكريمة بقوله: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ وقد ذكر المفسرون أن هذا التذييل تهديد ووعيد لمن يكتم الشهادة ويعرض عنها، والحق أن هذا التذييل لا يعود على كتم الشهادة وحدها، بل إنه يعود لكل ما ذكر قبله بدأ من آية الدين والأمر بكتابته، ثم الأمر بالإشهاد على البيع، وانتهاءً بالنهي عن كتمان الشهادة، وانظر إلى السياق من أوله إلى آخره تجد كل جملة فيه تستدعي التذييل باسم الله العليم، فإن الله قد ألزام كاتب الدين أن يكتب بالعدل وأن لا يميل إلى أحد الطرفين على الآخر كما ألزم من يملي – إذ لم يستطع أحد من الطرفين الإملاء– أن يملي بالعدل، كما أمر بالإشهاد على الدين وعلى البيع، وحذر من كتمان الشهادة أشد تحذير وألزم بعدم مضارة الشهود، ولا تتحقق هذه الأمور التي ألزم الله بها أو حذر منها إلا إذا أيقن الجميع بمعية الله وسعة علمه، فمتى أدرك كل طرف من أولئك أن الله عليم بما يظهره وما يضمره، وأنه لا يخفى عليه شيء من خطرات نفسه وعمل جوارحه، التزم بما ألزمه الله به، وانتهى عما حذره الله منه، وفي ذلك ما فيه من النفع والخير لكلٍ، حيث يأمن كل ذي حق على حقه، ولا تقع منازعة أو شجار بين الدائن والمدين أو المتابيعين أو بينهم وبين الكُتَّاب والشهود.

وكما هو واضح من السياق أن التعبير باسم الله العليم قد ورد مرتين الأولى في تذييل الأمر بالإشهاد على البيع حيث قال سبحانه: ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ والثانية في هذا الموضع الذي هو من تمام الحديث عن أحكام الدين والبيع من حيث الأمر بكتابتهما والإشهاد عليهما فقال سبحانه: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ وهذا لا شك يدل على أن التعبير باسمه تعالى العليم دون

ما عداه من أسمائه لم يأت لمجرد التذييل، وإنما جاء ليؤكد على ما ورد في السياق من أحكام، ولينبه على أن تلك الأحكام لم تشرع اعتباطًا، وإنما شرعت ممن أحاط علمه بكل شيء، وإذا كان الأمر كذلك فإن الأولى بالعباد أن يلتزموا بها لتستقيم حياتهم وليهنأ عيشهم.

ونجد في السياق كذلك عقب هذه الآية مباشرة قوله سبحانه: ﴿وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ﴾ [البقرة/ ٢٨٤] وهو يؤكد بذلك على علمه المطلق فلا فرق عنده – تعالى– بين من يبدي الأمر أو يخفيه، والسؤال الذي يطرح نفسه لماذا كرر إثبات العلم لنفسه – تعالى– ؟ والجواب عن ذلك أن الأموال لما كانت مظنة للطمع والاستيلاء عليها بغير حق، بالغ الله في إثبات علمه ليرتدع كل من تسول له نفسه أن يستولي على أموال الناس مستغلًا ضعفهم أو جهلهم، ولذا وجدنا الله تعالى يحذر من استغلال سفاهة صاحب الحق أو ضعفه فيقول: ﴿فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ﴾ وإذا كانت الآية أوصت بمن عليه الحق فالوصية بمن له الحق أولى.

المبحث الخامس

التعبير باسم الله العليم في مقام الحث على الإنفاق

إن النفس مجبولةٌ على حب المال، حريصةٌ عليه، شحيحةٌ به مخافةَ أن يلحقها الفقر، فجمعُ المال شهوةٌ مركبة في الإنسان لتكون دافعةً له على عمارة الأرض، شأنها في ذلك شأن سائر الشهوات التي ركبها الله فيه، وتلك الشهوات قد وضع الله لها ضوابط وقيَّدها بقيود، حتى لا يخرج الإنسان عن طور الإنسانية إلى طور الحيوانية يفعل ما تمليه عليه شهواته دون وازع من عقل أو شرع أو ضمير، وإنما منح الله الإنسان عقلا وشرع له شرائع لضبط حركته، وحتى لا يصير عبدًا لشهواته، وإذ كنا نتحدث عن المال فإن الله قد أباح للإنسان أن يكتسبه من حله وأن ينفقه في حوائجه المشروعة، ورغبه إلى جانب ذلك في إنفاق جزءٍ يسير منه على من لا قدرة لهم على الكسب، ووعده على ذلك بالجزاء والثواب الجزيل بالإخلاف والبركة في الدنيا، والرحمة والفوز في الآخر، وحتى يطمئن الإنسان لذلك فيخرج بعض ماله منشرح الصدر مرتاح النفس، بين له أن ما ينفقه – قل أو كثر– يقع تحت علم الله، فيجازي كلًا بقدره ويضاعف سبحانه لمن يشاء، لأن ذلك من طباع الإنسان لا يخرج ماله فيما لا يفيد وبلا مقابل.

وقد ورد التعبير باسم الله العليم في مقام الحثِّ على الإنفاق في أربعة مواضع من سورة البقرة، أما الموضع الأول فقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ [البقرة/٢١٥]

فالآية الكريمة تتحدث عن الإنفاق والأحق بالنفقة، ويُلَاحَظ أن الجواب لم يأت على وفق السؤال فإنهم سألوا عما ينفق، والجواب عمن ينفق عليه، ووجهوا ذلك بتوجيهين: أحدهما: أنهم سألوا عن الأمرين معًا ولكن حذف في حكاية السؤال أحدهما إيجازًا، ودل عليه الجواب بقوله: ﴿مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ﴾، كأنه قيل: المُنفَقُ هو الخير، والمُنفَقُ عليهم هؤلاء، فلفف أحد الجوابين في الآخر. ثانيهما: أن السؤال ضربان سؤال جدل وحقه أن يأتي الجواب على قدر السؤال بلا زيادة أو نقصان، وسؤال تعلم، وحقه أن يفصل له الجواب ويبين له الأمر الذي يحتاج إليه سأل عنه أو لم يسأل، فلما كانت حاجتهم إلي من يُنْفَقُ عليهم كحاجتهم إلى ما يُنفَقُ بين لهم الأمرين[1].

وقوله: "ماذا"، فيه وجهان: أحدهما: أن يكون بمعنى: أيّ شيء؟، وعليه فهو منصوب بقوله: "ينفقون" والتقدير: يسألونك أيَّ شيء ينفقون؟ ثانيهما أن يكون " ذا " بمعنى "الذي" ، ويكون ينفقون من صلته، وعليه فـ " ذا " مرفوع بـ "ما" والمعنى حينئذ: يسألونك ما الذي ينفقون؟ أو أن تكون "ماذا" بمعنى: أي شيء فيرفع "ماذا"، وإن كان قوله:" ينفقون" واقعًا عليه، إذ كان العاملُ فيه، وهو "ينفقون"، لا يصلح تقديمه قبله، وذلك أن الاستفهامَ لا يجوز تقديم الفعل فيه قبل حرف الاستفهام [2].

وراعى سبحانه الترتيب في الإنفاق فقدم الوالدين إذ حقهما أعظم من حق غيرهما فوجب تقديمهما على غيرهما في رعاية الحقوق، ثم ذكر بعدهما الأقربين لأن الإنسان لا يمكنه أن يقوم بمصالح جميع الفقراء، بل لا بد أن

---

(1) ينظر: تفسير الراغب:١/٤٤٤ ، وينظر: الكشاف:١/٢٥٧.

(2) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن للطبري:٤/٢٩٣ وينظر: معاني القرآن للزجاج:١/٢٨٧.

يرجح البعض على البعض والقرابة تصلح أن تكون سببًا للترجيح فالقرابة مظنة المخالطة التي هي سبب لاطلاع كل واحد منهم على حال الآخر وذلك من أقوى الدوافع على الإنفاق، ثم إنه إذا لم يراع جانب القريب احتاج للرجوع إلى غيره وذلك عار وسيئة في حقه، كما أن القريب جار مجرى الجزء من الإنسان والإنفاق على النفس أولى. ثم ذكر بعد الأقربين اليتامى لضعفهم عن الكسب ولعدم وجود من يكتسب لهم، ثم ذكر بعدهم المساكين وحاجة هؤلاء أقل من حاجة اليتامى لما لهم من قدرة على الكسب أكثر من قدرة اليتامى، ثم ذكر بعدهم ابن السبيل فإنه قد يقع في الفاقة والاحتياج لانقطاعه عن بلده وأهله، فهذا هو الترتيب الصحيح الذي رتبه الله تعالى في كيفية الإنفاق، ثم لما فصَّل هذا التفصيل الحسن أردفه بعد ذلك بالإجمال فقال: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ فلن يضيع عنده عمل عامل [1].

وخص هؤلاء بالذكر دون غيرهم على سبيل المثال لمن ينفق عليهم لا على سبيل الحصر والاستيعاب، إذ أصناف المنفق عليهم على ما قد ذكرهم في غير هذا الموضع، ولما كان المندوب إلى الإنفاق عليهم صنفين صنف لهم فرض معين في مال الأغنياء، وصنف لا فرض لهم معيناً ذكر الأبوين والأقارب تنبيها أن حقهم واجب، وقوله: ﴿مِنْ خَيْرٍ﴾ أي من مال، فسمي المال خيرًا؛ تنبيهًا أن الذي يجوز إنفاقه هو الحلال الذي يتناوله اسم الخير [2].

(١) ينظر: مفاتيح الغيب للرازي:٦/٣٨٣.

(٢) ينظر: تفسير الراغب:١/٤٤٤.

وقوله: ﴿مَا أَنفَقْتُمْ﴾ شرط والفعل مراد به الاستقبال كما هو مقتضى الشرط، والتعبير بالماضي لإظهار الرغبة في حصول الشرط فينزل كالحاصل المتقرر(١).

وعبر –سبحانه– باسمه العليم ليرغبهم في الإنفاق ويبعث في نفوسهم حب الخير والإحسان، فإن الإنسان إذا علم باطلاع الله على نفقته وأنه يجازيه بها سارع إلى العطاء، وتلك طبيعة في البشر أن ينظروا إلى الثمرة المرجوة من العمل، فإن عظمت ثمرته خفت على قلوبهم مؤنته، ونشطت جوارحهم للقيام به، فكيف إذا كان الله تعالى هو المطلع على نفقة العبد وهو الذي قد تكفل بالجزاء؟ فلا شك أن الجزاء عظيم لعظم من وعد به، ولذا أبهم –سبحانه– الجزاء لتذهب النفس في تقديره كل مذهب، لاسيما إذا قُرن الجزاء بعظم المجازي لا بما أخرجه العبد من مال، وإذا أردت أن تقف على هذا التفاوت بين الأمرين فتأمل التبعيض المستفاد من كلمة " من" في قوله: " مِنْ خَيْرٍ" والتقليل المستفاد من التنكير في قوله: "خَيْرٍ" ثم قارنه بقوله: "فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ" بما اشتمل عليه من تأكيد بإنَّ وإسمية الجملة واستعمالٍ لصيغة المبالغة " عليم " تدلك هذه المقارنة على أن العبد مهما قدم من شيء وإن كان حقيرًا قليلًا، فلن يفوته الأجر على ما قدم، بل إن الجزاء أعظم وأجزل لوقوع عمله تحت علم الله، وإذا كان الله عالما بالعمل فلا شك أنه يجزي به. ومن هنا يظهر لنا مدى التوافق بين السياق والتعبير بهذا الاسم من أسمائه تعالى دون غيره.

وبهذا يكون التعبير باسم الله العليم في هذا المقام مراعيًا للبعد النفسي لدى المنفق؛ لأن التخلي عن المال بالإنفاق أمر قد يكون شاقًا على النفس

(١) ينظر: التحرير والتنوير:٢/٣١٨.

لاسيما وأنها مجبولة على حب المال حريصة على الاستزادة منه، فإذا علمت باطلاع الله على النفقة ومجازته المنفق بنماء المال في الدنيا، والأجر والثوب في الآخر رغبت في الإنفاق وهشت له.

ومراعاة البعد النفسي أحد خصائص الأسلوب القرآني فهو ينوع الخطاب مراعيًا الأحوال النفسية والفكرية والاجتماعية للمخاطب(١).

ومن المواضع التي عبر فيه باسم الله العليم في مقام الحث على الإنفاق، قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة/٢٦١]

ووجه المناسبة بين هذه الآية وما سبقها أنه تعالى لما أجمل في قوله: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً﴾ فصَّل في هذه الآية تلك الأضعاف، وإنما ذكر بين الآيتين الأدلة على قدرته بالإحياء والإماتة ليحسن التكليف بالإنفاق إذ لولا وجود الإله المثيب المعاقب لكان الإنفاق في سائر أبواب الخير عبثًا، لكن إذا علم العبد أنه تعالى هو من خلقه وأكمل نعمته عليه بالإحياء وعلم كذلك قدرته على المجازاة والإثابة زادت رغبته في الطاعة وكان علمه بهذه الأحوال داعيًا إلى إنفاق المال، فإنه يجازي القليل بالكثير، وقد ضرب لذلك مثلا فالمنفق كمن بذر حبة فأنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة، فصارت الواحدة سبعمائة (٢).

---

(١) ينظر: في رحاب القرآن الكريم دراسة في البيان والتراكيب، د/ محمد الحجوي ، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، إيسسكو ١٤٣١هـ ٢٠١٠م. ص٢٨.

(٢) ينظر: مفاتيح الغيب للرازي:٣٩/٧

وقوله: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ﴾ فيه إيجاز بحذف مضاف، والتقدير: مثل نفقتهم كمثل حبة، أو مثلهم كمثل باذر حبة. وأسند الإنبات إلى الحبة والمنبت هو الله، ولكن الحبة لما كانت سببا أسند إليها الإنبات كما يسند إلى الأرض وإلى الماء. وهذا التمثيل تصوير للإضعاف، والممثل به موجود في الحقيقة فهناك من النباتات ما يخرج سبعمائة حبة كالذرة، ولو لم يوجد الممثل به لكان صحيحًا أيضا على سبيل الفرض والتقدير(١).

ونلاحظ هنا أنه –سبحانه– استعمل جمع الكثرة فقال: ﴿سَبْعَ سَنَابِلَ﴾ فيما حقه جمع القلة إذ السبعة يناسبها جمع القلة، وعليه كان الظاهر أن يقول: سبع سنبلات كما ورد بذلك قوله: ﴿وَسَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ﴾ [يوسف/٤٣] لكن لما كانت آية البقرة مبنية على ما أعد الله للمنفق في سبيله، وما يضاعف له من أجر إنفاقه، وأن ذلك ينتهى إلى سبعمائة ضعف وقوله: ﴿وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ قد يفهم الزيادة على ما نص عليه من العدد كما أشارت إليه آيات وأحاديث فبناء هذه الآية على التكثير، فناسب ذلك ورود المفسر على ما هو من أبنية الجموع للتكثير لحظا للغاية المقصودة، ولم يكن ما وضعه للقليل في الغالب ليناسب ما تلحظ فيه الغاية من التكثير. أما آية يوسف فإنما بناؤها على إخبار الملك عن رؤياه سبع سنبلات، فلا طريق هنا للحظ كثرة ولا قلة لأنه إخبار برؤيا، فوجهه الإتيان من أبنية الجموع بما يناسب المرئي وهو قليل، لأن ما دون العشرة قليل، فلحظ في

(١) ينظر: الكشاف: ١/ ٣١٠.

آية البقرة ما بعده مما يتضاعف إليه هذا العدد، وليس في آية يوسف ما يلحظ فافترق القصدان وجاء كل على ما يجب [١].

وقوله: ﴿وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ مختلف فيه على وجهين: الأول: أن هذه الجملة مؤكِّدة لما تقدم من ذكر السبعمائة وليس ثمة تضعيف فوق سبعمائة وبهذا قالت طائفة من العلماء، وذهبت طائفة إلى أن هذه الجملة إعلام بأن الله تعالى يضاعف لمن يشاء أكثر من سبعمائة ضعف. وهذا هو الراجح ففضل الله واسع، وعطاؤه غير محدود، فلم نضيق ما وسعه الله؟![٢].

وقد أفادت هذه الجملة كذلك أن المضاعفة على درجات لا يعلمها إلا الله تعالى لأنها تترتب على أحوال المتصدِّق وأحوال المتصدَّق علية وأوقات ذلك وأماكنه، وللإخلاص وقصد الامتثال ومحبة الخير للناس والإيثار على النفس وغير ذلك مما يحف بالصدقة والإنفاق تأثير في تضعيف الأجر[٣].

ثم ذُيِّلت الآية الكريمة بقوله:﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ وهذا التذييل بمنزلة التأكيد على ما سبق من الوعد بالإخلاف على المنفق وتعويضه بأضعاف مضاعفة مما أنفق، وفي الوقت نفسه حثٌّ له على مزيد من البذل والإنفاق، والتعبير باسم الله العليم جاء متوافقًا مع السياق من عدة وجوه:

---

(١) ينظر: ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل للغرناطي، ت: سعيد الفلاح، دار الغرب الإسلامي، ط:٢-١٤٢٨هـ ٢٠٠٧م. ٢٧٥/١، ٢٧٦.

(٢) ينظر: المحرر الوجيز لابن عطية:٣٥٦/١.

(٣) التحرير والتنوير:٤٢/٣.

أحدها: أن المال الذي يبذله المنفق أو المتصدق قد يراد به وجه الله وقد يراد به نيل الثناء والمدح من الناس، ولذا جاء التقييد بقوله: ﴿فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ مخرجًا للنفقة التي لا يراد بها وجه الله، والوقوف على نية المتصدقين يحتاج إلى علم بأحوالهم وما تنطوي عليه قلوبهم من إخلاص أو رياء ومن ثم جاء التعبير باسم الله العليم.

ثانيها: أن المتصدقين في سبيل الله الذين يريدون بصدقاتهم وجه الله تختلف أحوالهم وتتفاوت مراتبهم، وبتفاوت المراتب يتفاوت الجزاء وتتباين المنازل وتختلف الدرجات، والوقوف على هذا التفاوت والتباين يحتاج إلى دقة علم ليكون الجزاء على قدر العمل ولذا ختمت الآية باسم الله العليم.

ثالثها: أن الله وعد المنفق في سبيله بالثواب الجزيل والأجر العظيم الذي يصل إلى سبعمائة ضعف، ثم وعد بالزيادة على السبعمائة لمن يشاء، ثم جاء التذييل باسمي الله الواسع والعليم ليدل على سعة فضله ومزيد جوده وكرمه وأن هذه الزيادة وتلك المضاعفة لا تكون عن عبث أو جهل وإنما عن حكمة وعلم.

كذا من المواضع التي عبر فيه باسم الله العليم في مقام الحث على الإنفاق، قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (٢٦٧) الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾[البقرة/٢٦٧،٢٦٨]

فالآية الكريمة خطاب عام لجميع أمة محمد صلى الله عليه وسلم، وفيها أمرٌ بالإنفاق، وقد اختلفوا في المراد بهذا الإنفاق، هل الزكاة المفروضة أو التطوع، فقال بعضهم: هي في الزكاة المفروضة. نهى الناس عن إنفاق الرديء فيها بدل الجيد، وأما التطوع فكما للمرء أن يتطوع بقليل فكذلك له أن يتطوع بنازل في القدر، وعليه فالأمر عندهم للوجوب، وذهب بعضهم إلى أن الآية في التطوع، ورووا في ذلك ما معناه أن الأنصار كانوا يعلقون أقناء التمر في حبل بين أسطوانتين في المسجد فيأكل من ذلك فقراء المهاجرين فعلَّق رجل حشفا فرآه رسول الله –صلى الله عليه وسلم– فقال: بئسما علَّق هذا، فنزلت الآية. والأمر على هذا القول للندب، والآية تعم الوجهين، لكن صاحب الزكاة يتلقاها على الوجوب وصاحب التطوع يتلقاها على الندب، وهؤلاء كلهم وجمهور المتأولين قالوا معنى مِنْ طَيِّباتِ من جيد ومختار ما كَسَبْتُمْ، وجعلوا الْخَبِيثَ بمعنى الرديء، وقال ابن زيد معناه: من حلال ما كسبتم، قال: وقوله: وَلا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ أي الحرام [1].

وخص المال المكتسب بالذكر دون الموروث؛ لأن الإنسان بما يكتسبه أضن به مما يرثه، وإلا فالموروث معقول من فحوى الكلام[2].

ولم يذكر سبحانه الطَّيِّبَاتِ مع قوله: ﴿وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾ فلم يقل: ومن طيبات ما أخرجنا لكم؛ اكتفاء عنه بتقدم ذكره في قسيمه بالإضافة إلى ذلك فقوله: ﴿أَخْرَجْنَا لَكُمْ﴾ أشعر بأنه مما اكتسبه المرء بعمله بالحرث والغرس ونحو ذلك، لأن الأموال الخبيثة تحصل غالبا من

(١) ينظر: المحرر الوجيز:١/٣٦١

(٢) ينظر: البحر المحيط:٢/٦٧٧.

ظلم الناس أو التحيل عليهم وذلك لا يتأتى في الثمرات المستخرجة من الأرض غالبًا[١].

وفي التعبير بقوله: ﴿أَخْرَجْنَا لَكُمْ﴾ امتنانٌ وتنبيهٌ على الإحسان التام كقوله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً﴾ وكرر حرف الجر في قوله: "مما" على سبيل التوكيد، أو إشعارًا بتقدير عامل آخر فيكون الأمر بالإنفاق قد حصل مرتين[٢].

و قال سبحانه: ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ﴾ ولم يقل: ولا تنفقوا الخبيث، مع أن اللفظ أوجز؛ لأن القبيح من الإنسان أن يقصد الخبيث أي الرديء من جملة ما في يده فيخصه بالإنفاق في سبيل الله، فأما إنفاق الرديء لمن ليس له غير ذلك، أو لمن لا يقصده خصوصا فغير مذموم[٣].

وقوله: ﴿وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا﴾ يجوز أن يكون على ظاهره من قصد الإخبار فتكون الجملة تعليلا لنهيهم عن الإنفاق من المال الخبيث شرعًا بقياس الإنفاق منه على اكتسابه، أي كما تكرهون كسبه كذلك ينبغي أن تكرهوا إعطاءه. وكأنّ كراهية كسب الخبيث معلومة ومتقررة في النفوس ولذا قاس عليها كراهية إنفاقه. ويجوز أن يكون الكلام نهيًا عن أخذ الخبيث، فيكون الكلام منصرفًا إلى غرضٍ ثان وهو النهي عن أخذ المال الخبيث، وعلى كلا الوجهين هو مقتضٍ تحريم أخذ المال المعلومة حرمته على من هو بيده ولا يحله انتقاله إلى غيره. والإغماض في الأصل إطباق الجفن

(١) ينظر: التحرير والتنوير:٣/٥٦.
(٢) ينظر: البحر المحيط:٢/٦٧٨.
(٣) ينظر: تفسير الراغب:٣/٥٦.

ويطلق مجازًا على لازم ذلك، فتارة يراد به الهناء والاستراحة لأن من لوازم الإغماض راحة النائم، وتارة يراد به لازمه من عدم الرؤية فيدل على التساهل والتسامح. والاستثناء في قوله:﴿إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ﴾ على القول بأن الكلام إخبار فهو تقييد للنفي. أما على القول بأن النفي بمعنى النهي فهو من تأكيد الشيء بما يشبه ضده، أي: لا تأخذوه إلا إذا تغاضيتم عن النهي وتجاهلتموه [1].

وقد ذكروا أن في كيفية نظم هذه الآية وجهين الأول: أن الكلام قد تم عنده قوله:{وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ ﴾ ثم ابتدأ فقال﴿مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ ﴾ وتكون هذه الجملة استفهامًا إنكاريًا، والمعنى: أمنه تنفقون مع أنكم لستم بأخذيه إلا مع الإغماض. والثاني أن الكلام إنما يتم عند قوله:﴿ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ ﴾ ويكون الذي مضمرًا، والتقدير: ولا تيمموا الخبيث منه الذي تنفقونه ولستم بآخذيه إلا بالإغماض فيه، ونظيره إضمار التي في قوله:﴿ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا ﴾ [الْبَقَرَةِ/٢٥٦] والمعنى: الوثقى التي لا انفصام لها[2].

وذيَّل سبحانه الآية بقوله:﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ وافتتحه باعلموا للاهتمام بالخبر، أو تنزيلا للمخاطبين الذين نهوا عن الإنفاق من الخبيث منزلة من لا يعلم أن الله غني، وقوله: غني، أي غني عن صدقاتكم التي لا تنفع الفقير أو التي فيها استساغة للحرام، وحميد أي: شاكر لمن تصدق

(١) ينظر: التحرير والتنوير:٣/٥٨،٥٧.

(٢) ينظر: مفاتيح الغيب:٧/٥٥.

صدقة طيبة. والحميد من أمثلة المبالغة، أي شديد الحمد لأنه يثني على فاعلي الخير، ويجوز أن يكون من فعيل بمعنى مفعول والمراد أنه محمود وفيه دلالة على أن المتصدق من كسبه الطيب عليه أن يحمد الله إذ أنعم عليه بهذا الكسب ووفقه للتصدق منه(١).

ثم قال سبحانه: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ ووجه المناسبة بين هذه الآية وما سبقها غير خاف ذلك أنه تعالى لما رغب في الإنفاق من الطيب ونهى عن تيمم الخبيث حذر من وسوسة الشيطان إذ غالبًا ما يوسوس الشيطان ويخوف المنفق الفقر ويأمره بالإمساك والبخل، فعلى المؤمن أن لا يبالي بتلك الوساوس لأن الله وعده بالمغفرة والفضل(٢).

وفي قوله: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ﴾ قدم اسم الشيطان مسندًا إليه؛ لأنَّ تقديمه مؤذنٌ بذم الحكم الذي سيق له الكلام وشؤمه لتحذير المسلمين من هذا الحكم كما يقال مثلا: السفاح في دار صديقك، ولأنَّ في تقديم المسند إليه على الخبر الفعلي تقوي الحكم وتحقيقه. كذا في تقديم لفظ الجلالة في قوله: ﴿وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً﴾ تنبيهٌ على تحقق الوعد وتأكده لأنَّه صادر من الله الذي لا إخلاف لوعده، والوعد من الله حقيقي، أما وعد الشيطان فمجازٌ عن وسوسته وما يلقيه في النفوس من خوف فشبه إلقاء الشيطان في نفوسهم توقع الفقر بوعدٍ منه بحصوله لا محالة، ووجه الشبه

(١) ينظر: التحرير والتنوير:٣/٨٥ بتصرف.

(٢) ينظر: مفاتيح الغيب:٧/٥٥ بتصرف

مـا فـي الوعـد مـن معنـى التحقـق، وحسـن هـذا المجـاز هنـا لمشـاكلته لقوله: ﴿وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً﴾ فإنَّه وعد حقيقي(١).

وكـان مـن حـق مقابلـة اللفـظ فـي قولـه: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ﴾ أن يقـول: والله يعـدكم الغنـى، ويـأمركم بـالمعروف فليست المغفرة مقابلة للفقر ولا الفضل مقابلًا للفحشاء، إلى جانب ذلك لم يقـل: والله يـأمركم، والله فـي الحقيقـة يـأمر فأمـا الشـيطان فهـو المسـول الموسوس، وإنما قابل الفقر بالمغفرة والفضل، لأن الفضل أعم من الغنى، لأنه يتناوله وغيره، فبين أنه يعد بالغنى وزيادات فضل فأتى في مقابلة وعد الشيطان بالمغفرة، أنه يغفر مع ذلك انقيادكم للشيطان، وسائر الذنوب، ولما كان أمر الشيطان بالفحشاء إنما هو لأجل وعده بالفقر لأن من خاف بخل بمالـه، والبخـل سبب ارتكـاب سـائر الفواحش صـار مستغنيا أن يـذكر فـي مقابله: {وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ} بما ذكر من قوله: {مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا} لأن أمر الله تعالى بالخيرات والحسنات معلوم وإنما المجهول أمر الشيطان، إذ كان أمره يخفى على الجهال وإنما يعرفه أولوا الألباب(٢).

والمغفرة هي تكفير الذنوب، وفي تنكيرها وكذا في التعبير بقوله: (منه) ما يدل على كمالها وعظمها، فكون المغفرة منه معلوم لكل أحد، فلما نَصَّ على أنَّ هذه المغفرة منه عُلم أنَّ المقصود تعظيم حال هذه المغفرة لأنَّ عظم المعطي يدل على عظم العطية(٣).

(١) ينظر: التحرير والتنوير:٣/٥٩ بتصرف

(٢) ينظر: تفسير الراغب: ١/٥٦٦ بتصرف.

(٣) ينظر: مفاتيح الغيب:٧/٥٧.

ونأتي إلى الفاصلة التي ذيلت بها هذه الآية الكريمة حيث ذيلت بقوله: ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ وإذا نحن أمعنا في هذا التذييل نجده ملائمًا للسياق، فالسياق من بدايته يتناول ما يكتنف العبد من خوف، هذا الخوف مصادره متعددة ومتنوعة، فأول مصدر من مصادره نفسه التي بين جنبيه إذ تحول بينه وبين الإنفاق في سبيل الله ومرضاته؛ خشية أن يقلَّ ماله أو يلحقه الفقر، فإذا تغلَّب عليها وَهَمَّ بالإنفاق، زينت له إنفاق الخبيث الرديء الذي هو في عنى عنه ولا حاجة له فيه، ومن مصادر هذا الخوف كذلك الشيطان الذي يحول بينه وبين فعل الخير والبر، فيحذره من الفقر ويقهره على نفسه فتأتمر بأمره وتجنح إلى الإمساك والبخل، ولا شك أن مثل هذا الصراع القائم بين العبد ونفسه من جهة، وبينه وبين الشيطان من جهة أخرى، يجعل العبد في حالة من الضيق والانقباض، نتيجة للهَمِّ الذي أصابه، والحزن الذي ألم بها مخافة فقد المال والفقر، ومن ثم جاء التعبير باسم الله الواسع بشارةً لمن غلب هوى نفسه، وقهر شيطانه، وحثًّا وتحفيزًا لمن غلبه هواه وشيطانه، وتنبيهًا على أنَّ النفقة لا يعقبها الفقر لأنَّه تعالى واسع العطاء بالغ الجود والسخاء، فمن ضاقت عليه نفسه بالإنفاق وخاف الفقر فليذكر اسمه تعالى الواسع.

ثم جاء التعبير باسمه تعالى العليم لينبه المنفق على سعة علمه وكمال إحاطته، فهو سبحانه عليم بدواخل النفس ونوازعها، وميلها إلى البخل والإقتار، وحثها لصاحبها على إنفاق الخبيث دون الطيب مخافة الفقر والعوز. عليمٌ كذلك بوساوس الشيطان وإيعاده المنفق بالفقر، وإذا كان الشيطان قد توعد المنفق بالفقر وأمره بالبخل، والله قد وعد المنفق بسعة الرزق والمغفرة والفضل وهو مع ذلك واسع عليم، فإن الحكمة تقتضي من

العبد أن يستجيب لما دعاه الله إليه من إنفاق الطيب وعدم مخافة الفقر، ومن السفه والحمق والغفلة أن يستجيب لنوازع نفسه ووساوس شيطانه من إنفاق الخبيث والإيعاد بالفقر والأمر بالبخل، ولذا قال سبحانه عقب هذه الآية مباشرة: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة/٢٦٩]

الخاتمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد:

فقد عشت من خلال هذا البحث مع اسمٍ من أسماء الله –تعالى– الحسنى، وهو اسمه العليم، أسأل الله أن يفيض علينا من بركات هذا الاسم، وأن يعلمنا من لدنه علمًا يكون لنا عونًا على طاعته، وسعيًا في مرضاته، وقد تتبعت هذا الاسم الكريم في سورة البقرة حيث ورد، وحاولت إظهار ما للسياق من أثر في اصطفاء وإيثار هذا الاسم على ما عداه من أسمائه تعالى في المواضع التي ورد فيها، وتوصلت من خلال هذا البحث المتواضع إلى بعض النتائج التي يمكن إجمالها فيما يأتي:

أولًا– للمفردة أثرٌ كبير في تشكيل النظم والتركيب، والتهاون في اختيار المفردة أو وضعها في غير موضعها يفضي لا محالة إلى فساد الكلام وسقوطه.

ثانيًا– يُعنى القرآن عناية فائقة باختيار المفردة بحيث تكون غاية الدقة، ملائمة للسياق، مؤدية للمراد؛ لما لذلك من أثر في بلاغة النظم، ومن ثم تأثيره في نفوس متلقيه، وعمله في قلوب سامعيه، إذ المفردة هي الوحدة الأولى من الوحدات المكونة للنظم والمؤلفة للنص، ومن ثم يجب العناية بها ووضعها في الموضع اللائق بها حتى لا يخرج النظم مبتورًا مشوهًا، حتى إنك لتعجز عن أن تجد مفردة من مفرداته يمكن الاستعاضة عنها بغيرها أو وضع غيرها في موضعها.

ثالثًا- ينبغي أن يكون هناك ترابط واتساق بين أجزاء الجملة المستقلة والجمل فيما بينها، بحيث تكون المناسبة قائمة، والصلة قوية بين الكلمات والجمل، حتى لا ينفر منها اللسان أو تمجَّها الآذان، وخير مثال لهذا الترابط والتلاحم كتاب الله تعالى.

رابعًا- إذا نحن تأملنا السياقات التي ورد فيها اسم الله العليم لوجدنا أن اختيار النظم القرآني لهذا الاسم من أسمائه -تعالى- لم يكن عبثًا ولم يأت اعتباطًا، وإنما جاء ليكون آخر الكلام مناسبًا لأوله، وأوله دالًا على آخره، ومن ثم تكون الكلمة في موقعها ومؤدية لدورها، ولو أنك حاولت في هذا الموضع التعبير بغير هذا الاسم، لكان النظم مختلًا، ولكانت العبارة نابية غير مستقرة في موضعها، وهذا أمر يدركه صاحب الذوق ومن له حظ من البلاغة.

خامسًا- بالنظر في الفواصل القرآنية – بما فيها الفواصل المشتملة على اسم الله العليم- نجد أن الفاصلة لم تراع السياق وحده بل ضمت إلى ذلك مراعاة التناغم الصوتي وجمال الإيقاع، ومن هنا يتضح لنا أن الفاصلة في القرآن يحتمها السياق وتقتضيها الحكمة ولا ضير أن يقترن مع هذا الغرض المعنوي ما يتصل بجمال اللفظ وبديع الإيقاع، وإن كان بعضها يمكن إدراكه بأدنى تأمل وبعضها يحتاج إلي فضل عناية وتدبر.

سادسًا- بالنظر في تذييل الآيات -بما فيها المشتملة على اسم الله العليم- نلاحظ أن التذييل غالبًا ما يدخل تحت مظلته كل المعاني التي تضمنها السياق، فكأنه أجمل بهذا التذييل ما فصله قبل، وهذا إن دل فإنما يدل على قوة اللفظ وصدقه في الدلالة على المعنى، كما يدل كذلك على تمكن اللفظ في موضعه ومن ثم كان مظهرا للمعنى بمجمله ومعبرا عن المراد.

سابعًا- التعبير بالأسماء الحسنى في فواصل تلك الآيات وغيرها يثري تلك الفواصل بدلالات لا تحصى من ظلال هذه الأسماء التي لها طابع القداسة والأهمية، وبالمقابل ترد الفواصل الجميل للأسماء الحسنى إذ تنزلها منزلًا حسنًا في ختام الآيات وتبذل لها النصيب الأوفى من النفوس والأسماع لأنها آخر ما يتناهى إلى القارئ والسامع من الآيات؛ فإذا وطدت هذا الختام بوشائج العلاقات مع القرائن من تمكين وتوشيح وتصدير وإيغال- وهذا دأبها- أوفت على الغاية برد الجميل، أضف إلى ذلك ما تعطيه تلك الأسماء الحسنى من إيقاع لاسيما وأن أكثرها مردوف بأحد حروف المد مما يترك صداه الآسر في موقعه من الفاصلة، وفي تناغمه مع الطابع العام للفواصل.

ثامنًا- عادة ما تستعمل الأسماء الحسنى -بما فيها اسمه تعالى العليم- مراعية للبعد النفسي والجانب الإنساني، وتلك إحدى خصائص الأسلوب القرآني فهو ينوع الخطاب مراعيًا الأحوال النفسية والفكرية والاجتماعية للمخاطب.

المراجع

١- الإتقان للسيوطي، تحقيق/ محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط:١٣٩٤هـ ١٩٧٤م.

٢- إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٣- اشتقاق أسماء الله لعبد الرحمن بن إسحاق البغدادي الزجاجي، تحقيق: د. عبد الحسين المبارك، مؤسسة الرسالة، ط: الثانية، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

٤- الإعجاز البياني بين النظرية والتطبيق، د/حفني شرف، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ط/الأولى١٩٧٠م.

٥- إعجاز القرآن لعبد الكريم الخطيب، دار الفكر العربي بمصر ط: الأولى.

٦- إعجاز القرآن للباقلاني، تحقيق/ السيد أحمد صقر، دار المعارف، مصر.

٧- أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي، تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط: الأولى ١٤١٨هـ.

٨- الإيضاح مع البغية لعبد المتعال الصعيدي، مكتبة الآداب، ط: السابعة عشر: ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م.

٩- البحر المحيط، لأبي حيان الأندلسي، تحقيق: صدقي محمد جميل، دار الفكر، بيروت ط:١٤٢٠هـ.

١٠- البرهان في علوم القرآن للزركشي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي، ط: الأولى، ١٣٧٦هـ ١٩٥٧م.

١١- البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري وأثرها في الدراسات البلاغية، د/محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، ط: الثانية١٤٠٨هـ ١٩٨٨م.

١٢- البيان والتبيين للجاحظ، تحقيق/ عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، ط: السابعة ١٤١٨هـ ١٩٩٨م.

١٣- تاريخ آداب العرب للرافعي، دار الكتاب العربي.

١٤- تاريخ الإسلام وَوَفيات المشاهير وَالأعلام للذهبي، تحقيق/ د. بشار عوّاد معروف، دار الغرب الإسلامي، ط: الأولى، ٢٠٠٣م.

١٥- التحرير والتنوير لابن عاشور، الدار التونسية للنشر، تونس١٩٨٤هـ.

١٦- تفسير ابن عرفة، تحقيق: د. حسن المناعي، مركز البحوث بالكلية الزيتونية، تونس، ط: الأولى ١٩٨٦م.

١٧- تفسير أسماء الله الحسنى للزجاج، تحقيق: أحمد يوسف الدقاق، دار الثقافة العربية.

١٨- التفسير البسيط للنيسابوري، تحقيق: لجنة علمية بجامعة الإمام محمد بن سعود، الناشر: عمادة البحث العلمي، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.، ط: الأولى، ١٤٣٠ هـ.

١٩- تفسير الراغب الأصفهاني، تحقيق: د. محمد عبد العزيز بسيوني، كلية الآداب، جامعة طنطا، ط: الأولى:١٤٢٠هـ ١٩٩٩م.

٢٠- تفسير السمعاني، دار الوطن، الرياض، ط: الأولى، ١٤١٨هـ-١٩٩٧م.

٢١- تفسير الماتريدي، تحقيق: د. مجدي باسلوم، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: الأولى،١٤٢٦هـ ٢٠٠٥م.

٢٢- تفسير مقاتل، تحقيق: د.عبد الله محمود شحاته، دار إحياء التراث – بيروت، ط: الأولى١٤٢٣هـ.

٢٣- ثلاث رسائل في إعجاز القرآن للرماني والخطابي وعبد القاهر الجرجاني، تحقيق/ محمد خلف الله، د/ محمد زغلول سلام، دار المعارف بمصر، ط: الثالثة.

٢٤- جامع البيان في تأويل القرآن للطبري، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط: الأولى١٤٢٠هـ ٢٠٠٠م.

٢٥- جامع الرسائل لابن تيمية، تحقيق/ د. محمد رشاد سالم، دار العطاء – الرياض، ط: الأولى١٤٢٢هـ ، ٢٠٠١م.

٢٦- خروج الأمر المتيقن مخرج الشك والاحتمال لطائفه وأسراره في القرآن الكريم، د/ علي عبدالكريم، بحث بحولية كلية اللغة العربية بنين بجرجا، العدد الثالث والعشرون ١٤٤١هـ ٢٠١٩م، الجزء التاسع

٢٧- دفاع عن البلاغة للزيات، عالم الكتب، القاهرة، ط:الثانية ١٩٦٧م.

٢٨- دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر، تحقيق: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني بالقاهرة، ط: الثالثة ١٤١٣هـ ،١٩٩٢م.

٢٩- دور الكلمة في اللغة لستيفن أولمان، ترجمة: كمال بشر، مكتبة الشباب، ط ١٩٨٦م.

٣٠- ديوان الراعي النميري، جمع/ ريْهَنرات فاييرت، المعهد الألماني للأبحاث الشرقية، بيروت ١٤٠١هـ ١٩٨٠م.

٣١- ديوان امرىء القيس، تحقيق/ محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، ط: الخامسة.

٣٢- ديوان جرير بشرح محمد بن حبيب، تحقيق: د. نعمان محمد أمين طه، دار المعارف، القاهرة، ط: ٣

٣٣- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للألوسي، تحقيق/ علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: الأولى، ١٤١٥هـ.

٣٤- زاد المسير في علم التفسير لأبي فرج الجوزي، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط: الأولى ١٤٢٢هـ.

٣٥- سنن أبي داوود، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت

٣٦- شأن الدعاء للخطابي، تحقيق: أحمد يوسف الدّقاق، دار الثقافة العربية، ط:الثالثة،١٤١٢هـ ١٩٩٢م.

٣٧- الصبغ البديعي د/أحمد إبراهيم موسى، دار: الكاتب العربي للطباعة والنشر ١٣٨٨هـ ١٩٦٩م.

٣٨- صحيح البخاري، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي) ط: الأولى١٤٢٢هـ.

٣٩- الصناعتين لأبي هلال العسكري، تحقيق/ علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت١٤١٩هـ.

٤٠- علم البديع دراسة تاريخية وفنية لأصول البلاغة ومسائل البديع، د/ بسيوني عبدالفتاح فيود، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، ط: الرابعة١٤٣٦هـ ٢٠١٥م.

٤١- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده لابن رشيق، تحقيق/ محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجبل، بيروت.

٤٢- غرائب التفسير وعجائب التأويل للكرماني، دار القبلة للثقافة الإسلامية، جدة. مؤسسة علوم القرآن، بيروت.

٤٣-الفاصلة في القرآن لمحمد الحسناوي، دار عمار، ط: الثانية١٤٢١هـ٢٠٠٠م.

٤٤- فن البديع، د/عبد القادر حسين، دار الشروق، ط: الأولى ١٤٠٣هـ ١٩٨٣م.

٤٥- في رحاب القرآن الكريم دراسة في البيان والتراكيب، د/محمد الحجوي، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة ، إيسسكو ١٤٣١هـ ٢٠١٠م.

٤٦- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل للزمخشري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط: الثالثة ١٤٠٧هـ.

٤٧- الكشف والبيان عن تفسير القرآن للثعلبي بتصرف، تحقيق: الإمام أبي محمد بن عاشور، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط: الأولى ١٤٢٢هـ ٢٠٠٢م.

٤٨- لسان العرب لابن منظور، دار صادر، بيروت، ط: الثالثة ١٤١٤هـ.

٤٩- اللسان لابن منظور، دار صادر، بيروت، ط: الثالثة ١٤١٤هـ.

٥٠- لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية لشرح الدرة المضية في عقد الفرقة المرضية، لشمس الدين السفاريني ، مؤسسة الخافقين ومكتبتها، دمشق، ط: الثانية ١٤٠٢هـ ١٩٨٢م.

٥١- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر لابن الأثير، تحقيق: أحمد الحوفي، بدوي طبانة، دار نهضة مصر، الفجالة، القاهرة.

٥٢- المحرر الوجيز لابن عطية، تحقيق/ عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط:الأولى ١٤٢٢هـ.

٥٣- معانى القرآن للأخفش، تحقيق: د/ هدى محمود قراعة، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط: الأولى١٩٩٠م.

٥٤- معاني القرآن للزجاج، تحقيق/ عبد الجليل عبده شلبي،عالم الكتب، بيروت، ط: الأولى ١٤٠٨هـ ١٩٨٨م.

٥٥- معجم القراءات، د.عبد اللطيف الخطيب، دار: سعد الدين.

٥٦- المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، دار الدعوة.

٥٧- مفاتيح الغيب للرازي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط: الثالثة ١٤٢٠هـ.

٥٨- المفصل في علوم البلاغة العربية د/ عيسى علي العاكوب، منشورات جامعة حلب١٤٢١هـ. ٢٠٠٠م.

٥٩- مقاييس اللغة لابن فارس، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر ١٣٩٩هـ ١٩٧٩م.

٦٠- مقدمة في أصول التفسير لابن تيمية، مكتبة الحياة، بيروت، ط:١٤٩٠هـ/ ١٩٨٠م.

٦١- المقصد الأسنى في شرح معاني أسماء الله الحسنى للإمام أبي حامد لغزالي، تحقيق: بسام عبد الوهاب الجابي، الناشر: الجفان والجابي، قبرص. ط: الأولى، ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م.

٦٢- ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل للغرناطي، تحقيق: سعيد الفلاح، دار الغرب الإسلامي، ط: الثانية١٤٢٨هـ ٢٠٠٧م.

٦٣- من بلاغة القرآن لأحمد البدوي، نهضه مصر، القاهرة، ٢٠٠٥م.

٦٤- النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن، للشيخ/ محمد عبدالله دراز، دار القلم، ط: ١٤٢٦هـ- ٢٠٠٥م

٦٥- النحو والدلالة (مدخل لدراسة المعنى النحوي الدلالي) د. محمد حماسة عبد اللطيف، دار الشروق، ط: الأولى١٤٢٠هـ ٢٠٠٠م.

٦٦- نظرات من الإعجاز البياني في القرآن الكريم نظريًا وتطبيقيًا، د/سامي محمد حريز، دار: الشروق، الأردن، ط: الأولى٢٠٠٦م.

٦٧- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.

٦٨- نقد الشعر لقدامة مطبعة الجوائب، قسطنطينية، ط: الأولى، ١٣٠٢هـ.

٦٩- النكت والعيون للماوردي، تحقيق: السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية، بيروت.

٧٠- الوجوه والنظائر لأبي هلال العسكري، تحقيق: محمد عثمان، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط: الأولى، ١٤٢٨هـ ٢٠٠٧م.

٧١- الوسيط في تفسير القرآن المجيد للواحدي، تحقيق/ مجموعة من المحققين، دار الكتب العلمية، بيروت. ط: الأولى، ١٤١٥ هـ ١٩٩٤م.

فهرس المحتويات

الموضوع
مقدمة
تمهيد
المبحث الأول: التعبير باسم الله العليم في مقام الحديث عن قدرته– تعالى– على الخلق والبعث.
المبحث الثاني: التعبير باسم الله العليم في مقام الحديث عن العقائد.
المبحث الثالث: التعبير باسم الله العليم في مقام الحديث عن العبادات والشعائر.
المبحث الرابع: التعبير باسم الله العليم في مقام الحديث عن الأحكام الشرعية
المبحث الخامس: التعبير باسم الله العليم في مقام الحث عن الإنفاق.
الخاتمة.
فهرس المراجع.
فهرس المحتويات.